

أقاصيص

من الآباء



عظيمة

ادموون



ادعو PN صبري

اقاصيص  
من  
الـ

مطبعة أسعد - بغداد - هاتف : ٦٢١٧٩

١٩٧٠

أرى الحق لم يقش البـلاد  
وانما مشى ضارباً في الارض تلفظه الطرق  
فيصبح في أرض ويمسي بغيرها  
وحيدا فلا يؤويه غرب ولا شرق  
ومن عجب أن الورى يدعونه  
وهم من قديم الدهر اعداؤه الزرق  
اعدوا له في البر والبحر قوة  
اذا ظهرت ينسد من دونها الافق  
وطاروا بطائراتهم يمتطرونه  
قذائف من نار كما أمطر الودق  
يقولون ان الحق في الخلق قوة  
تذل لها الاعناق قهرا وتندق  
فما باله يمسي ويصبح شاكيا  
ولا يتحاشى عن ظلامته الخلق  
الرصافي

لقد كنت في درب ببغداد ماشيا  
وبغداد فيها للمشاة دروب  
فصادفت شيخا قد حنى الدهر ظهره  
له في الصراط المسـتقيم ديب  
عليه ثياب رثة غير أنها  
نظاف لم تـدنس لهن جيوب  
يسير الهوينا والجماهير خلفه  
يسـبونه والشيخ ليس يجيب  
تسألت من هذا فقال مجاوب  
هو الحق جاء اليوم فهو غريب  
فجئت اليه ناصرا وموآزرا  
ودمعي لاشفاقى عليه صبيب  
وقلت له أنا غريبان ههنا  
وكل غريب للغريب نسـيب  
الزهاوي

## مايكل

كان يتطلع الى تلفزيون الحانة بحدة وانتباه ، كما لو أن المذيع على وشك أن يقول شيئا بالغ الخطورة ، كأن يعلن الحرب أو يقرر مصير البشرية أو يحدد من سيموت من أفراد أسرته ومن سيبقى على قيد الحياة .

كان هذا الرجل قد اتخذ مجلسا دانيا من التلفزيون وسمر عليه عينين قلقتين ، وكان يبتسم احيانا من حيث لا يدري ابتسامة محسورة متعبة فيها معنى الانتصار والتشفي فعل المقامر في جولة من جولات الحظ .

جلست عن كذب منه ورحلت أدرس أمره . ترى هل هو في تمام عقله أم انه ملثاث العقل ، وايا ما كان الامر فثمة حالة تهمني دراستها . لم أقحم نفسي في شؤونته خشية أن ينصرف عني كما لم أظاهر بعدم المبالاة المطلقة فيعاملني بالمثل . وتلك خطة بارعة تعتمد على الكر والفر .

ابتسمت له ابتسامة مشجعة وقلت - :

- برنامج لذيق أليس كذلك ؟

انتبه من غفلته كما لو وخزته بآبرة فرمقني بنظرة مستطلعة تقيس لباقتي وهدفي . ويبدو أنه اطمأن الي ، اذ تراخت عضلات وجهه ثم تفضنت في قوة عند جانبي فمه والتمعت عيناه بابتسامة ودية فأبتسمت له أكثر من ذي قبل وقلت في نبرة مرحة كمن يطمح في التسمية والترفيه :

- هل ثمة برنامج مشوق على التلفزيون ؟

أجاب باقتضاب ماذا يده الى المقعد الخالي :

- هو كذلك ، تفضل واجلس الى جانبي ..

حملت كأسي ودنوت الى حوازه . قال دون أن يلتفت نحوي:

- انني أنتظر ولدي على الشاشة . أصغر عازف كمان .

ما أشد فرحتي به .

وما هي الا ثوان حتى سمعت المذيع يقول :

« ستعزف لكم الفرقة الموسيقية .. مقطوعة .. » ولم يذكر

اسم احد ٠٠ ظهر على الشاشة خمسة عازفين بينهم انسان صغير  
يبلغ العاشرة محتضنا كمانا .

صفق الرجل بقوة وصاح بانفعال :

- ابني مايكل ٠٠ ابني مايكل ٠٠ هذا العازف الصغير يا الهي  
ماأجمله على الشاشة وما أحلى وجهه ٠٠

نهض من مكانه في خفة القط وهجم على التلفزيون مقبلا اياه  
في الموضع الذي تبدو فيه صورة ابنه مايكل ٠٠ ثم تراجع قليلا  
ومد ذراعيه على طول انبساطهما وهتف « عزيزي مايكل ، بيض وجه  
أبيك وسود وجه أمك » كان هتافه اشبه بالهتاف الذي يتعالى في  
سباق الخيل أو في مباراة كرة القدم .

كانت الحانة مزدحمة وضاجة بمختلف الاصوات . وكان كل  
شارب منهمك في اجتراح شؤونه اليومية ٠٠ ان ما أبداه الرجل من  
الانفعالات والخروج عن المألوف كان من طبيعة المكان ولذا لم يثر  
الا قليلا من الانتباه العابر . استمر الرجل يهتف « مايكل بيض  
وجه أبيك وسود وجه أمك » فعل ذلك عدة مرات .

بدأت الفرقة تعزف وبدأ ساعد مايكل النحيل القصير يروح  
ويجيء على أوتار الكمان في رشاقة وحذر مخرجا نغما مرحا متناسقا  
مع الجوقة . تأملت في وجه الصبي المرتسم على الشاشة . كان وجهها  
بريئا شفافا . وجه انسان يحلم أن يكون لامعا في مستقبل أيامه  
وانه يضع اللبنات الاولى لعالمه المقبل .

وجه كهذا ليس كثير الوقوع عليه ، وكان عزفه جيدا وحركاته  
متزنة رشيقة . تمتم الرجل :

- «مايكل عبقرى موهوب يملك كل صفات النبوغ والابداع .  
قبل أن يبلغ العاشرة عزف قطعة حبي المشهورة » ثم سألتني بثقة  
ان كنت قد سمعت قطعة حبي . فأجبتة انني قد سمعتها . ثم  
شرع يعزف قطعة حبي بين شفثيه مخرجا من جوفه المخمور لحنا  
قاسيا جافا كأنه العويل . أردف الرجل :

- عزف مايكل قطعة حبي في العاشرة فجذب بذلك انتباه  
كبار الموسيقيين ، فأدخلته المعهد فكان إعجوبة اساتذته .

قلت للرجل كل ماتقوله صدق وحقيقة وانني اهنتك على ولد

نابه وعبقري مثل مايكل العزیز ، ولكن اسمح لي أن اسأل مامعني  
بيش وجه أبنيك وسود وجه أمك ؟  
حذق مليا في وجهي غير مدرك فيم هذا السؤال المحير . قال  
في بطاء :

- انك لاكتفي بالظاهر من الامور بل تريد الغوص الى القعر ،  
وهذه خصلة محدودة لا تخلو من براعة وذكاء .

قلت - هتافك جلب انتباهي . . وان وراءه لسر . .  
قال - تلك قصة طويلة . مايكل هذا من غير أم ، هجرته  
وعجرتني أنا كذلك عندما كان عمره سنتين ، فهو لايعرفها ولكنه  
يكرهها وقد علمته كيف يكرهها . وهذا غريب أن يكره الانسان  
انسانا وهو لايعرفه ولم يره .

يقولون انها تعيش في هذه المدينة في مكان مجهول مع رجل  
آخر ميسور الحال اغدق عليها النعمة والرفاه . في بيتها تلفزيون  
من غير ريب وانها قاعدة اللحظة تجاهه تتسلى وتلهو ولكن هل  
تستطيع أن تتصور مدى حزنها عندما يظهر مايكل على الشاشة .  
ان حزنها لينفذ بعيدا في قلبها مثلما ينفذ السهم المدبب . لقد رأت  
اللحظة ابنها الذي تركته طفلا رضيعا ولحقت برجل غريب . انني  
أتصور ان هما في ثقل الجبل يروح على صدرها . لقد بكيت من  
غير ريب ولم يسعفها البذخ والثراء ولا الطنافس والرياش بل  
استحال كل ذلك الى قش وهباء والى أدوات تعذيب جديدة .  
سألت الرجل : وما جدوى كل ذلك ؟

قال في ثقة : انني أنتقم بطريقتي الخاصة وبأسلوبى البسيط ،  
أعذبها ، أمزق سعادتها ، أحرق قلبها ، أتلف نعيم الحياة من  
عينيهما .

سألته - : هل يعرف مايكل كل هذا أيضا . .  
قال - هو أبرع مني في الانتقام لقد اتفق مع مديع صديق  
أن يذكر اسم مايكل للمستمعين ولسوف يذكر اسمه في المرة  
القادمة . ولسوف يقول المديع « العازف البارع مايكل جورج »  
أظن انها ستنتحر أو تهرع الى دار التلفزيون باكية مولولة وعند  
ذاك سارفسها .

تركت الرجل جانبا وعدت الى مكاني .

## عندما يلتقي الاضداد

تحدث في الحانات كثير من الصداقات السريعة ، اذ تجيش نفس الانسان برغبة ملحة بالاختلاط ، وذلك للتنفيس عن كرب أو استئناس بوجه جديد أو مجرد استطلاع تأثيره المشاعر الخاملة في ان الانسان هو الانسان رغم تعقيدات الحياة وطغيان الفردية وانشغال المرء بذاتيته وحدها .

في احدى الليالي جالست رجلا غريبا في زاوية من زوايا الحانة ، لم أعرفه من قبل ، الا أنه الفى بنفسه علي كما أقيمت بنفسي عليه ، ولعل كلينا كان يضيق ذرعا بصمته الثقيل وتوحده الموحش ، وكان ان قص علي حكاية للاستدلال على مفارقات الحياة وسخفها أحيانا . قال :

سكنت ذات مرة في بيت من البيوت ، بيت عادي لا هو بالكبير ولا هو بالصغير ولا هو بالزري ولا هو بالفخم . كانت غرفتي تقع عند الفسحة التي تنعطف فيها السلم متجهة الى السطح ، فليست هي في الطابق الارضي وليست هي على السطح ، بيد انها تتمتع بموقع استراتيجي فريد . فهي القناة التي توصل الى السطح وهي البرج الذي يشرف على الغرفتين الكبيرتين من جهتيهما الخلفية .

تسكن هاتين الغرفتين عائلتان احسب ان ليس في العالم أي عائلتين أكثر منهما تغايروا واختلافا في حياتيهما . . . احدى العائلتين قد أنجبت سبعة من البنين والبنات تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشر والستين ، والوالد حارس ليلي في مخزن لبيع الاخشاب يتقاضى عشرين دينارا في الشهر ، يمضي ليله في الحراسة ويمضي نهاره مضطجعا على سريريه الكبير أو بالاحرى سرير زوجته اثناء الليل .

كانت بلية هذه العائلة هي كثرة أولادها ، فليس ثمة أمكنة مريحة للنوم ولا مواعد منظمة للطعام ولا هجود وهجوع . ينذر ان يخلو يوم من غسيل بسبب كثرة ما يتسخ من جلابيب وستر وخرق ، وكانت قدور الطعام كبيرة منبعجة اشبه بقدور المطاعم الرخيصة ، تملأ هذه القدور في الصباح وتفرغ في المساء ، والعيون الصغيرة ماتزال تحمق في نهم تتوقع بقايا وغضلات في الصحون . والام

امراة متينة البناء جلدة على المصاعب لايعوزها عوز الا ما اشئتكت  
في نزال من أن تستعمل قبضتيها ولسانها الذرب السليط .  
أما العائلة الاخرى فلها طفلة وحيدة تنعم بربيعها السابع .  
طفلة مدللة نظيفة ، تذهب الى مدرستها الاهلية بسيارة كبيرة تلتفتها  
من عتبة البيت مزودة بالفواكه والحلويات تستين بها على الجوع .  
كانت هذه الطفلة قليلة الاختلاط بأولاد العائلة الاخرى ترفعا  
واستعلاء . فهي مدللة نظيفة عفيفة في طعامها وشرابها تدرس في  
مدرسة اهلية ووالدها موظف حسن البزة أنيق الثياب ينام ليله  
ويعمل في نهاره كما يفعل الاسوياء من الناس وامها هادئة مهذبة  
لاتحدث صخباً ولا ضجيجاً .

لم يكن ربا العائلتين على صداقة وود كما لم يكونا خصمين  
متنافرين . كانا يتبادلان التحيات المقتضية ويتعايدان في الاعياد على  
نحو سريخ وجاف دون أن يتصافحا ، انما يكتفيان بانحناء خفيفة  
ووضع الكف على الصدر . كانا يشعران بضرورة اصطناع بعض  
الالفة مع الجيران ولكن الى الحد الذي لايرقى الى الصداقة ، وكانا  
الى جانب ذلك يختلفان طولا وعرضا وملامح وقسمات ، فالحارس  
طويل نحيف محدوب الظهر والموظف ربعة في الطول يطلع قليلا في  
مشيه قد غزا رأسه الصلع والشبيب معا بينما الحارس كثيف الشعر  
وكانما يضع على رأسه فروة داكنة السوداء .

عشت مع هاتين العائلتين زهاء ستة أشهر ، كانت الحياة تمضي  
على وتيرة واحدة ، ضجيج وضوضاء وغسل ملابس والتهام كميات  
كبيرة من الاطعمة ، وصفائح ملأى بالزبل الى جانب هدوء وتعفف  
ونظافة ، كانت زوجة الحارس مجهدة على الدوام لاتخلد الى الراحة  
الا ساعات قليلة من الليل بينما تنهمك زوجة الموظف في تطريز اغطية  
للفراش أو نقش رسوم في قماش سميك وكانها فنانة محترمة تعمل  
في مشغلها .

كانت علاقتي طيبة بكلا الرجلين . كلاهما يحييني بود ولطف  
واعمد أن أخوض مع احدهما حديثا طويلا عندما يكون الآخر غائبا  
فاستطعت أن أوحى الى كليهما انني اقرب مودة اليه من جاره ، ومن  
هذه المراوغة البريئة توصلت الى معرفة بعض اسرارهما . علمت

عن طريق الاستقراء ان زوجة الحارس الليلي تكره انجاب الاطفال بكل طاقتها وتتناول من أجل ذلك حبوبا مانعة للحمل وقد رأيت علبة فارغة من هذه الحبوب ملقاة في صفيحة الاوساخ . وعلمت كذلك ان زوجة الموظف مرهقة بهم ثقيل هو خشيتها من ان يصيب ابنتها مكروه فتفقددها وتضحى من غير ابناء اشبه بالزوجة العاقر لذا فهي راغبة أشد الرغبة في انجاب أبناء آخرين وقد استبان لي ذلك عندما تأخرت السيارة التي تقل ابنتها من المدرسة الى البيت زهاء نصف ساعة . رابطت الام عند الباب تضرب كفا بكف وقد خرجت عن طورها الهادئ الرزين واخذت تبكي وتندب حظها قائلة « ما اظلم حظي اذ أفقد ابنتي الوحيدة » تطوعت لمساعدتها فاتصلت بإدارة المدرسة تلفونيا فأعلموني ان السيارة قد انطلقت من المدرسة منذ ساعة وهي في طريقها الى المنزل ، ولكن السيارة لم تصل فتضاعفت هواجس المرأة الا أنني طمأنتها ما وسعنى من كلم طيب قائلا « قد تكون السيارة معطوبة وهذا أمر جائز ولا داعي للقلق » . وجاء زوجها فأبدى رباطة جأش محمودة ودعا زوجته ان تهدأ وتطرد مخاوفها وفي لحظات الانفعالات قال شاكيا : « انها تعيش في خوف دائم من ان تفقد ابنتها ، وما عساي افعّل ، كلما لاحت تباشير الخير جاءت النكسة في أعقابها فأطاحت بكل أمل مرتقب » . كان الرجل يعاني من عقدة زوجته .

أعولت المرأة « انني اخاف . اخاف . ليست لدينا غير ابنة واحدة وقد تموت واموت انا بعدها » .

أردف الزوج « هذه مصيبتني . . . تخاف أن تموت ابنتها ولا تخاف ان أموت انا او تموت هي » وسرعان ما تلبد الجو بسحبابة من الهم جعلتنا جميعا نجلس مطرّقين ، وبعد دقائق قدمت السيارة وهبطت منها ابنتهما ، وهي في احسن حالات الانشراح ، اذ قد استمتعت بنزهة اضافية الى كراج لتصليح السيارات فرأت أماكن غير مألوفة لديها واطلعت لأول مرة على ماكنة السيارة بعد ان ازيح عنها الغطاء وهي كتلة قاسية معقدة من الحديد مطلية بالدهان لا يزيد حجمها عن حجم منضدة صغيرة تجلس عليها المعلمة ومع ذلك فهي تسحب جسما هائلا ثقيلًا .

نهدت الام الى طفلتها وامطرتها بقبل حارة عنيفة .. قلت  
لنفسي « ههنا شيء عجيب ، ام تتناول الحبوب من اجل الاتحمل  
وام اخرى يقتلها الاسى لانها لم تحمل » .  
بعد شهرين شئت الصدف أن تحمل المرأتان في وقت واحد .  
زوجة الحارس تندب حظها وتكاد تتمزق من الغيظ . لقد اتت من  
الافعال مايضحك . كانت تلعب كالصبية وتحدث احيانا من الاهتزازات  
والقفزات مايعجز عن اتيانها صبي من صبيان الازقة . وكانت تحمل  
كميات من الانتقال وتغسل الملابس كل أيام الاسبوع وتدق بالمهراس  
حبات الحنطة ، وبين آونة واخرى تختلس النظر الى بطنها وتضغط  
عليه بأصابعها ..

أما زوجة الموظف فحالما شعرت انها حامل قصدت احد اطباء  
المشهورين وهي فرحة اشد الفرح . اجرى عليها الفحص واكد  
لها على انها حامل وأوصاها أن تخذل الى الراحة فلا تكنس ولا تطبخ  
ولا تجهد نفسها ولا تنفعل ولا تتناول التوابل ، فامتثلت للامر  
مثل جندي . كان زوجها المسكين يتناول غذاءه في المطاعم العامة  
ويكنس الغرفة بمكنسة ذات مقبض طويل ليتفادي الانحناء وليحول  
دوب تسرب الغبار الى رأسه . يفعل ذلك في تكتم شديد خشية ان  
يلمحه احد من أبناء العائلة الاخرى فينثلم احترامه .. ويبدو انه  
كان مسرورا بهذه التضحيات الصغيرة اذ يرى استبشار زوجته  
وحسن مزاجها رغم أنها كانت تتأوه كلما تقلبت في فراشها ، ولم  
تشأ الام أن تكتم فرحتها عن ابنتها الصغيرة ، فقد همست في اذنها  
غير مرة « ستكونين اختا لآخ » ففهمت الطفلة معنى تصرفات أمها  
فكانت تجيب في اخلاص « سألاعبه واسقيه الحليب ولا اجد نفسي  
وحيدة في البيت » .

أما زوجة الحارس فقد اضطرت آخر الامر وبعد ان أعيتها  
محاولاتها اليائسة أن تقصد طبيبة من الطبيبات ، دفعت لها ديناراً  
عزيزاً وتوسلت اليها أن تنجيتها من هذا البلاء العظيم ، فمستها  
الطبيبة في بطنها وخاصرتها وأخفقت بأصابعها هنا وهناك ثم انتهت  
الى حكم قضائي لا مرد له ذلك انها حامل والجنين أقوى من شجرة  
التوت وليس ثمة مهرب وان أية محاولة للاجهاض معناها الانتحار .  
عادت الى البيت وهي شحنة من الغيظ والحنق .. استعادت

في ذهنها متاعب الطفل المنتظر ، صراخه ونهمه في امتصاص ثدييهما  
المتهدلين وأوساخه وخرقه المبتلة • وجاء زوجها فاعلمته بالخبر  
المحزن فحمل حملة منكرة على الطبييات ووصفهن بالشـريرات  
والتاجرات والساحرات وهو يتميز غيظا ••

وحدث ذات ليلة ما ليس بالحسبان • بعد ان تجاوزت الساعة  
الواحدة سمعت ضجة في غرفة الموظف وحركة غير اعتيادية تؤذن  
بوقوع مكروه فخرجت استطلع الخبر ، تناهى الى اذني أنين الزوجة  
الخافت ورأيت الزوج يروح ويجيء في حيرة وارتباك شأن من أوضاع  
صوابه وما ان وقعت أنظاره علي حتى خف نحوي مستنجدا «حالتها  
سيئة انها على وشك أن تجهض ، يا الهي لست أدري ماذا أفعل »  
تلفت حولي فلم أر بدا من طلب المعونة من زوجة الحارس • جئت  
عند بابها وطرقته بلطف عدة مرات وبعد انتظار طويل خرجت اليينا  
بوجه متجههم نعلان • قلت لها « بإمكانك ان تعيني جارتك في  
ساعة محنتها » •

سألت في ضيق « ماذا ألم بها ؟ »

قلت « الاجهاض •• انها على وشك أن تجهض » •

أجابت في لا مبالاة « ماالذي تستطيع فعله ، لتأخذ بطني  
وتعطيني بطنها » ولم تبادر الى ابداء أية معونة •

وبعد ايام انتقلت عائلة الموظف الى بيت بعيد ••

## الحديقة العامة

كنا في ذلك العهد طلبة في الصف السادس ، نتكدر كل صباح في غرفة الصف المعتمدة خمسة عشر صبيّا كفلول كنيبة مهزومة ، مصوبين أنظارنا نحو اللوحة السوداء المنصقة بجدار من الطين ، ناقلين عنها مايسطره الطباشير الابيض من كلمات ورسوم .

لنا هيئة من المعلمين في غاية العجب ، كأن الدولة أرادت أن تجعل منهم متحفا للمخلوقات النادرة . فعملم الرياضة يضع عوينات ويقوم بحلق رؤوس زملائه المعلمين في غرفة الادارة ، لما هم بتشكيل فرقة لكرة السلة اصطدم بعقبة كبيرة ، إذ كانت الكرة تتجه الى عويناته بدلا من أن تطير نحو الهدف ، فحل الفرقة واكتفى بألعابه السويدية التي كان يقوم بها على نحو مضحك ، ومعلم الجغرافية شاب جميل مهندس كان يدرس التمثيل في بغداد ، وفيما هو على أهبة التخرج نقلته الوزارة الى بلدتنا فأضاعت عليه اعظم فرصة ، الا أنه حرص على استعادة أدواره الممتازة ، ولأجل هذا صار يمثل أمامنا ، فحينما نحياه في الصف ينحني انحناء طويلة وينشر يديه ويتلطف بابتسامة ، كما يفعل الموسيقيون بعد انتهاء عزفهم وعندما يتحدث عن روما وباريس وفيينا يتحسر وينتابه الانفعال ويضرب الارض بعقبه في هياج حتى تكاد عيناه تدمعان فيصيح في يأس : « انكم لاتفهموني أيها الصغار أنا فنان أملك مواهب ... آه لاكاد اختنق في هذا المكان ... العالم فسيح وعظيم ونحن نعيش في عزلة ما أفزع هذا » .

ولنا معلم للرسم معتل الصحة قصير دائم السعال ، كان يجلب صوراً ومنحوتات من بغداد ويزين بها غرفته ، وإذا ما اقبل مفتش يدعى انها جميعا من صنعنا ، ونحن براء منها لانقدر على رسم خطين متوازيين .

ولنا مدير شاذ الطبع يلوح في الصف متداعيا تعباً كأنه قد قضى الساعات العشرين الماضية مضطجعا في تابوت فأستيقظ مبهوتا فزعا وهرول الى المدرسة مشعث الشعر زائغ البصر ، وكان يدخن بورق اللف في اسراف ، وفي الصف يحملق في وجوهنا بشدة ويتابع

حكايته في موضوع الواجبات : « الدولة سسلطة عليا تنشيء المستشفيات والمستوصفات وتقيم المدارس وتعين المعلمين وتبسط الطرق وتسهل مراسلات الناس وتحفظ الامن وتحمي حدود البلاد ، ثم يسهب في واجبات البلدية ، فيتحدث عن مشاريع الماء والكهرباء وينتهي الى الحدائق العامة التي تنشئها البلدية لراحة الناس وتلطيف جوهم . »

هذا هو الموضوع الذي يتفضل بالقائه علينا ، والذي قد حفظه عن ظهر قلب خلال عشرين سنة في الخدمة . يتعثر غالبا في خضم كلماته الكثيرة المنمقة فيتوقف كما لو اصطدم بجدار ثم يندفع كره اخرى في طلاقة مشوشة ويتعثر ويتمخط بصخب ويسعل ويحسق طويلا في السقف ويطل من النافذة ويسأل أحدا : ان كان والده قد فرغ من الحصاد ، ولا يضيره ان يناقش في مسألة الحصاد ان وجد ذلك يسره . »

كان المدير هذا يدعى - عبدالمجيد - رجل عازب ذرف به العمر الا انه مبتلي بداء ، وداؤه هذا هو حنينه البالغ لاستطلاع وجوه السيدات الجميلات ، وقد اودى به هذا الحنين الذي كان يتكشف في صور شتى الى مآزق ومصادمات جارحة . كان يسأل الطلاب عن أهل بيته من النساء او يطيل النظر الى صدور المرضعات في اشتها فيثير بذلك الاقاويل وينشر الهمس ، وطالما وجد يذرع أزقة الناحية ملقيا نظرات مشبوهة داعرة الى مساوير الابواب ، الا أنه متكتم بارع فلم تند عن شفثيه أية كلمة نابية ولم يشتم أحدا . »

أما نحن الذين شبينا عن الطوق منذ عام على اكثر تعديل فقد غدونا صحابين مشاكسين لا تكاد الناحية تحويينا بطاغانا الهائلة المنفتحة حديثا . في الامسيات نزجي فراغا في حديقة الناحية ، فهي على فقرها ويوسستها تمدنا بالعون لقتل الوقت الذي يثيد علينا بشقله المرهق . »

كانت حديقة عاطلة مسيجة باسلاك مقطوعة ، تتوسطها بركة من السممت سيئة التكوين ، يتدفق عليها الماء من نافورة رصاصية مبعوجة ، يقوم على حراسستها وربها رجل من البلدة يودي الى جانب

ذلك خدمات في بيت مدير الناحية • نرتاد الحديقة في الامسيات حيث نشهد من هناك غروب الشمس وهي تتوارى في كآبة وراء التلال التي لم يصل اليها أحد منا ، وفي الصباح من أيام العطل كنا نختف الى حديقتنا مسرعين فنقرأ وننشد الاناشيد ونقوم بتمرينات رياضية غير عابثين بوساقتها وبالاهمال الطويل الذي تعرضت له من جراء الماء لقليل الذي تصيبه •

وحدث أن نقل مدير ناحيتنا بعد ان اقام بيننا زهاء خمس سنوات • كان أشيب عريض الصدر مديد القامة خدم في مطلع شبابه في الجيش وما زالت حركاته تتصف بالعسكرية • كثيرا ما كنا نصادفه يحوس البلدة خلال الليل مع اثنين من رجال الشرطة لتفقد الامن ، فقد كان يهون عليه أن يموت مئة انسان بالكوليرا من أن تسرق من أحد علبة نقاب •

الجديد كما سبقت الاشاعات مجيئه ، شاب حقوقي متنور وكان كذلك • قدم في ظهر يوم قاتظ متوقد بحرارة الشمس ، تقله سيارة تاكسي فخمة مع حقائبه الكبيرة فتقدم معلمونا والموظفون الآخرون للسلام عليه وتهنئته ، وشرع هو دون تضييع وقت كثير يتفقد شؤون البلدة باهتمام بالغ كورثت يعيد تنظيم مزرعة أبيه ، وقد نالت الحديقة حظوة بالغة من عنايته فغرس فيها الشجر واجرى عليها الماء واحاطها بالكالبتوس واللبلاب وجعل فيها عرائش مظلة بأوراق الكروم ، وسرعان ما انبثق في ارجائها الزهر الفواح من الارض الغبراء ناشرا أريجها العاطر من مئات الورد • وقعت هذه التحسينات أمام أنظارنا فشكرنا مدير الناحية على عنايته واهتمامه ، كما أننا بدىياحة مدير مدرستنا وافرنا على علمه الغزير واطلاعه الواسع في أن الحداثق لنزهة الناس ومن شؤون الحكومة أن تنفق عليها المال لانعاشها وتجميلها •

وذات يوم فوجئنا بنبا عظيم ، اذ عاد مدير الناحية بعد غيبة قصيرة ومعه زوجة ، فطار الخبر الى كل مكان بسرعة البرق كما يحدث عادة في المدن الصغيرة ، ولاجل ملء الفراغ الذي يحسه الموظفون فقد جعلوا من هذا الخبر موضوعا للحدس والتخمين ورواية الحكايات ، حتى قدم أحدهم ذات يوم يذيع ان الزوجة على

غاية من الجمال بل هي فينوس بلحمها ودمها • عينان نجلاوان  
وأنف اغريقي وقسمات خمرية • انها تحفة حقيقية من تحف  
العاصمة ، فانصرفت الازدهان في الحال الى الجسد الرشيق البض  
الغض الذي يلوذ متخفيا بالعباءة السوداء • في الامسيات ينتزه  
الزوجان في الحديقة فيرجونا البستاني بلطف أن تنصرف ونخلي  
المكان ، ويظل يراقبنا حتى نجدنا قد ابتعدنا كثيرا عن السياج ،  
فنلمح الزوجة الجميلة تلج الحديقة في عظمة مع زوجها المدير ،  
فيمكثان هناك بعض الوقت ثم ينصرفان • لم يعجب المدير وجودنا ،  
كانت عملية اخراجنا وتلصصنا واستبقاء بعض مانحمل على مصاطب  
الحديقة قد أثار استفزازه ، فأختتم عمله العظيم بجعل الحديقة  
وقفا على زوجته وحدها ، وحرم علينا ارتيادها • تجلس في  
الامسيات ساهمة متفكرة تحديق مليا في البركة وتتشمم الازهار  
مستعيدة في ذهنها مباحج العاصمة ومسراتها مغتاطة من فقر هذا  
المكان وتفاهته ، وأصبحنا نحن نحوم حول الحديقة ونرنو خلسة  
الى وجهها الجميل ونتهامس حتى ادركت غابتنا من هذا الحومان  
فأوعزت الى الشرطة فطردونا شر طردة وأنذرونا بالضرب المبرح  
ان نحن عدنا الى مثلها ، ومن يومها انقطعنا عن حديقتنا وصرنا  
نضرب في آفاق اخرى •

نما في أنفسنا بترaxي الزمن حقد دفين لمدير الناحية ، اذ  
حرمنا من حديقتنا وطردنا وحجب عنا رؤية زوجته الجميلة ، كما  
ان ديباجة مدير المدرسة غدت مملة غاية الملل وتبعث على النقمة  
بعد ان تكشف بطلانها وأسفر زيفها لاسيما عندما يتحدث عن  
الحدائق العامة •

صار المكر يلعب برؤوسنا تغذيه حفيظة مهتاجة مستثارة  
فتفتقت اذهاننا الصيبانية عن لعبة فريدة مدعشة ، اذ انبرى  
أحدنا للاستاذ وأمطره بوابل من الكلام القارص الثقيل •

— أيها الاستاذ كيف تنفق الدولة على الشعب ولنا مثل هذا  
المستوصف الخرب الفارغ من الادوية والطبيب يزوره مرتين في  
الاسبوع ، والجزار يذبح اغنامه في عرض الطريق ويلقي بأمعائها  
في مجاري المياه فيطن عليها الذباب وتحوم حولها الكلاب • ثم اين

هي الاشجار التي تلتطف الجو وتمنع الغبار . الا ترانا نسبح في بحر من الغبار . وان لنا حديقة وهذا حسن ، ولكن لمن هذه الحديقة ؟ هي لامرأة واحدة لا غير ، تصايحنا جميعا في غير نظام . بلى بلى هي لها فقط ، هذا حرام » .

ساد الصمت بضع دقائق . كانت أنظارنا مغروزة في الوجه المقطب الذي كان يزداد امتقاعا دقيقة بعد اخرى ، ثم تنفس بعمق وتداعى للوراء فريسة الدهشة وانشأ يقول بكلام هادئ « الدولة تفهم واجباتها خير منا وليس لصبيان مثلكم أن ينتقدوا ويعيبوا ولا أريد بعد اليوم مناقشات وانتقادات » فرد عليه صبي آخر « ولكن هذا الذي يقع بيننا ونلمسه » رد المدير في اقناع :

- بلى . ولكن افهموا اننا نتكلم عن المدن الكبرى ، وما بلدتنا هذه الا قرية متطورة قليلا قد لايعلم مكانها صبيان مثلكم في العاصمة . في المدن كل شيء على مايرام ، المستشفيات مشحونة بالادوية والمرضى يعالجون ويشفون والاطباء في وفرة كافية والاغنام تذبج في مجازر فنية نظيفة والمدارس فخمة كالقلاع وبعضها نموذجية لانباء الوجهاء وحدهم ، والحدائق كبيرة مزودة بالمصاطب المريحة مع شتى أنواع الاشجار المجلوبة من أنحاء العالم والناس يرتادونها منعين هائئين .

فصحننا من جديد .

- اذن فيم جعلت حديقةتنا لانسان واحد ؟

فحملق فينا مرة اخرى وسأل :

- ماذا قلتم . الحديقة لزوجة المدير وحدها ؟ هل شاهدتم هذا بعيونكم ؟

فصحننا جميعا « أجل أجل شاهدنا هذا وتستطيع أن تتأكد بنفسك » .

فرد علينا بانزعاج وتضايق « كفى تأذبوا . . . سأتحقق من ذلك » .

نجحت مؤامرتنا أروع نجاح ، فبعد أن كان مديرنا يتكرم بجسمه الكبير على مصطبة المقهى يثرثر في قدسية مهنة التعليم ويشيد بخدماته للانسانية ، صار يترىض كالرجال (العقلاء) حائما

حول الحديقة يسترق النظر من وراء السياج الى المرأة الغائصة الي خلبت لبه ، فأثار حومانه هذا همسا وتقولات كثيرة وتنبأ الجميع ان حدثا بالغ الخطورة سيقع بين المديرين في وقت قريب، وصرنا نحن الثائرين الصغار نتطلع بشوق الى اليوم المنتظر الذي سيصطدم فيه المديران الكبيران ، وكان هذا اليوم يبدو دانيا . فربطنا هناك مترقبين متلهفين ومن ورائنا موظفو الناحية يتحرقون شوقا لآخر الانباء .

و ذات مساء كثيب ثقیل ينيخ على البلدة بأسرها ، بدت السماء كخيمة مصبغة بزرقة ناصلة حملتها الرياح الى علو شاهق ، والشمس مفارقة بالغبار تطفل وراء التلال البعيدة والناحية قد بدت في تمام شناعتها . فمدخل المستوصف مغلق ببوابة من الخارصين ككراج السيارات ومركز الشرطة عتيق بال، شامخ بعظمة لا يستحقها كجنرال متقاعد يتوكل على عصا ويحمل على صدره نياشينه ، ودائرة البريد ككوخ راهب زهد في كل زينة ، والمدرسة مكتوبة على جانب الطريق كضرب من مستودعات الجيش .

كنا نشهد هذا من فوق رابية في اعقاب الناحية ، قد اخفيها رؤوسنا الصغيرة بين الصخور نرقب بحذر مدير مدرستنا وهو يقوم بجولاته المعتادة حول الحديقة . كان يدنو من السياج مشربا بعنقه متطلعا حواله بوجل واحتراس .

أقبل مدير الناحية حائنا خطاه في تهرع مسددا نظرات صاعقة الى خصمه المسكين . ارعد في وجهه مزجرا .

— أيها الحقير ماذا تفعل في هذا المكان .. ألا تخجل ؟ ألا يندى جبينك بالعرق .

ارتبك مديرنا اذ جمدته المباغتة في أرضه ، فهو مصمم وق منذهل فريسة قنوط واستكانة عظيمنتين . فتقدمنا على مهلنا . كان المدير يوالي هجمته العنيفة في استبسال وجراة ، دنونا من الرجلين فرقع مديرنا باصبرته نصف المغضتين ونظر الينا جميعا . ان وميضا حيوانيا شرسا اشتعل في حدقتيه ، فانتفخ صدره بشهيق عميق وجلجلت حنجرتة المخنوقة حتى أنه اوقع الرعب في نفوسنا .

— انها حديقة للناس وليست لزوجتك وحدها ايها السارق

المغتصب ... افتتح أبوابها ودع الناس يدخلون ... ها انظر هؤلاء هم أصحابها الذين تزدريهم .

هذه الموجة المقدمة من الكلام الجارف قلبت مدير المديرية ظهرا لبطن ، فغلي الدم في أورده و احتقن وجهه احتقاناً قرمزيا ينذر بأوخم العواقب . فهدر صارخا :

— هذه زوجتي . أنت مشاغب لعين . أنت رئيس عصابة لا مدير مدرسة . . سأريك ما أنا قمين بفعله .

رد المدير في استهانة .

— افعل ما يروق لك .

دلف مدير الناحية الى الحديقة وهو مرتجف من فرط انفعاله فأصطحب زوجته وخرج بها ، فألقت علينا جميعا نظرة شزرء مفعمة احتقارا حتى جعلتنا نطأطيء رؤوسنا ندما . أما مديرنا فما أسرع ما انفتأ غضبه وبردت حميا هياجه استتفزع الجرأة التي اصطنعها بل انه دهش من نفسه ، فأطرق متماسكا في جهد متباعدة عنا في وهن .

دخلنا نحن الحديقة ينتابنا شعور مضمّن من الضيق والخرج ، فتمثلت لنا الاشجار وكأنها أضرحة ، والمكان كله يلوح كمخلفات انسان ميت ، بل ان كل زهرة قد طبعت على أوراقها نظرتها تلك التي قذفتنا بها عند انصرافها ، فلم نطق الاضطبار ، فخرجنا منكفئين الى بيوتنا ، وانتشر الخبر الى كل نفس حية في الناحية في الدقائق الخمس التي اعقبت الحادث . ان الناس لينتظرون ببالح الاهتمام الى ما ستسفر عنه هذه الملحمة الدراماتيكية ، فلا حديث بعد اليوم غير حديث المديرين ولا جديد بعد اليوم غير الجديد من أمرهما ، حتى المغترب يبعث برسائله مستوضعا مستفهما ، والقادم الجديد تجرّفه الدوامة في الحال فاذا هو متلف الى تتبع الاشاعات الاخذ بعضها برقاب البعض ، فمن قائل ان شخصية ذات وزن ثقيل تحمي مدير ناحيتنا وهو عضو بارز في البرلمان ووزير سابق . وان رجلا من قادة الجيش المتقاعدين يحمي مدير مدرستنا ولولاه لما جرؤ على فعلة كهذه . بل ان بعضهم لجأ الى الرهان واقامة المآدب على نفقة الخاسر . ان قلقا متوترا حادا قد استبهد بالجميع ، ترى

الى أين سستبلغ القضية . . . واي من المديرين سينقل ويعاقب  
ويضطرب تيار حياته ، ولم تطأ قدم أحد ارض الحديقة خلال المدة ،  
فانصرف عنها البستاني واعتكفت الزوجة في بيتها لاتبرحه .

وأخيرا حل اليوم المنتظر مع كارثة اخرست الافواه ، اذ تلقى  
مديرنا كتابا من وزارته تبلغه ليس بالنقل الى ناحية اصغر من  
ناحيتنا وأضيع منها على الخارطة ، انما تبلغه بانهاء الخدمة ،  
فصعقنا نحن الكتيبة المهزومة لهول النباء ، وفي يوم رحيله احتشدنا  
على بابه مع آبائنا ، وظهر هو على العتبة محوطا بمعلمي الرياضة  
والجغرافية والحساب الذي قدم منذ عشرة أيام . تطلع البنات  
بنظرات هادئة حزينة فيما كنا نتولى نقل حقائبه الى مخـزن  
السيارة ، كانت حقائب جلدية في غاية الاهتراء وقد حزمت بالحبال .  
أفكار قاسية ثقيلة راودت خواطرنا في تلك اللحظات الاخيرة  
وبدت لنا عيناه وكأنهما تتساءلان أية حفرة احتفرتم للرجل المسكين .  
كان الغبار يزوبع مالئا الفضاء . وهذه سيارة المدير شرعت تدور  
مبعدة الى حيث لايدري أحد .

والحديقة التي كانت مدار المنازعات اعيد اليها جمالها  
وروتقها ، فازدهرت واينعت كمثلا قبيلا . ان الذي يرتادها اليوم  
ليس نحن . . بل هي وحدها . كانت مشمخة متباهية تجر  
وراءها ذيلا طويلا من الترفع والكبرياء قد أسفرت عن وجهها  
الجميل كله .

وها قد كبرنا وانتشرنا في أرض الوطن وحالما يلتقي أفراد  
الكتيبة المهزومة بجري الحديث في الحال الى المدير عن المـجيد  
وأيام الحديقة العامة .

## حكاية عن السلطان

في احدى زيارات السلطان الفاتح الى سوق النخاسة ، لقي غلاما جميلا أزرق العينين كستنائي الشعر أشم الانف رقيق النخم أبيض البشرة ، يتزاحم عليه المشترون . اقترب منه السلطان وتفحصه مليا ، فأذهله حسنه وبهاؤه وامتناسق قامته واللون الرائع المصطبغة به عيناه .

وعندما علم النخاسون أنه السلطان ، أحنوا هاماتهم الى الارض وتسارعوا في تقديم أدق المعلومات عن الغلام :

قالوا اسمه مهذار وانه من الكرج أو من البحار الشمالية الواسعة حيث لا تشرق الشمس على الناس الا ساعة أو بعض ساعة ، فتنجو أجسادهم من الملوحة والسمرة والتشقق وتستعيض عن ذلك بالبضاضة والغضاضة والليونة وتناسق العضل ووفرة اللحم ، وكان الغلام تجسيدا لكل هذه المحاسن . واذا مانطق الغلام شاكر السلطان على رعايته وتفضله اطلقت شفاته نغمسا موسيقيا عذبا كأنه الترتيل أو خفقة مباغته على أوتار الكمان .

حمله السلطان الى بيته وأوصى الملمين في الموسيقى والغناء أن يتعهدوه بالدرس والتهديب ، وما هي الا سنة أو بعض سنة حتى نبغ الغلام بقريحة متوقدة وذكاء عريض في كل ضروب الغناء والضرب على الطنبور والعود ، كما اخذ ينظم المقطوعات الجميلة ويلحنها لنفسه ثم يغنيها في محافل الطرب ، فيخمر الجالسون بصوته قبل أن يخمروا بكؤوسهم .

كانت متعة بطانة السلطان وضيوفه أن يحضروا الولائم والافراح التي يغني فيها مهذار ، حتى أنهم ليفضلون سماعه على مصاحبة نسائهم واولادهم ، وذات يوم ماتت والدته السلطان ، فظن الناس أن صوت مهذار سيسكت في فترة الحداد الا أنه نظم مقطوعة غنائية حزينة في ساعات ووضع لها اللحن الباكي المتفجع ، وجلس في العزاء ينشد اغنيته الاسيانية وكان الميته أمه او اعز من أمه ، فانطلق النشيج من الصدور وتنابت الآهات والحسرات وتصببت العيون دموعا . لقد ابدع مهذار في مجلس العزاء كما ابدع

في مجلس الافراح وشهد له الجميع بقدرته وبراعته . وكلما أحرز السلطان انتصارا على خصومه وأعدائه وأذاقهم مر العذاب والويل أنطلق مهذار ينشد المدائح في تعظيم السلطان جاعلا منه القائد والملم والمدير والحصيف والامين وجامع حكمة الاولين والآخرين وجاعلا من خصوم السلطان المخربين والدساسين والمعتوهين والناطحين صخرة تنحطم دونها القرون .

لكل سلطان اعداء ومتربصون وحاقدون ، ان امتصت السجون بعضهم وقطعت السيوف رؤوس البعض الآخر فالأخرون يهيئون ويدبرون ريتا مرون حتى يجسدوا لطموحهم منفذا ، وكان أن بوغت السلطان مثلما يباغت الاسد الهصور في غابته ومقل حكمه ، فتلتف حول الجبال ويتهاوى رأسه عند قدميه ويجر من مكمنه العزيز الى قفص البيغاء ، وهكذا كان ، اخذ السلطان قهرا الى قفص يحيط به سجانون قساة غلاظ مجردا من هيئته وصولته كما يجرد اللصوص . جرى خاطره الى مهذار المسكين الذي يقاسي مثله آلام المهانة والاحتقار فتألم له مثلما تألم لنفسه . لقد حكم على السلطان المخلوع بالموت الرهيب . الحكم الذي يقضي بقطع الرأس عن الجسد . وقبل أن ينفذ فيه هذا الحكم ارتأى السلطان الجديد ان تولم وليمة فاخرة يحضرها السلطان المخلوع في قفصه ليمتّع نفسه ولآخر مرة بمثل هذه المسرات . . . والحق أريد له الازعاج والاذلال لا الامتاع والتكريم حمل الى القاعة في قفص مصنوع على هيئة اقفاص البيغاء وطرح في زاوية قصية وهو مشدود مخبول أن يرى اثنائه وملكه ومجوهراته في أيدي آسريه ومعذبيه . . وجد الكرسي الذي اعتاد أن يقعد عليه مهذار خاليا ، فحسب ان مهذار ميت مقتول فتحسّر عليه . ولما التثم الشمل واجتمع مايمكن جمعه من الرجال ، خرج مهذار من وراء الستائر ، عليه الجديد من المطارف والزينة ، فأمعن السلطان فيه النظر وهو لا يكاد يصدق . أمسك مهذار بالطنبور كما كان يمسكه من قبل وغنى مثلما كان يغني من قبل بل خيل للسلطان انه أكثر سحرا وجودة ونشاطا وكان لم يحدث ما حدث ولم يسقط سلطان وتزول دولة واحكام . وكان مهذار يتجه بأنظاره أحيانا الى السلطان المحبوس في القفص ويستهزي به ويخرج

له لسانه دون أن تختلج في وجهه عضلة توحى بالخجل والاحراج  
وكانما يراه لأول مرة وفي هذه الليلة بالذات • غنى بكل مافي طاقته  
من فن وابداع وتآلق ، فتمأملت الرؤوس وانتششت الانفس وتهادت  
الخصور والتمتعت الوجوه مرحا واستثناسا •

وقبل أن ينبلج الفجر ، حضر الجلاذ الرعيب ومعه السيف  
القاطع لينفذ حكم السلطان الجديد بالسلطان المخلوع • • جاء رجل  
الى المخلوع وسأله ان كان يرغب في قول شيء • قال « أود ان ارى  
مهذارا » فجاء مهذار ووقف ازاء السلطان من غير أسف ولا ندم  
ولا خجل •

قال له السلطان « ما الذي جعلك تخونني ؟ »

أجاب مهذار « لانك خنتني » •

فدهش السلطان وقال « كيف يمكن ان أخونك وقد رعيتك  
واغدقت عليك النعم والخيرات وجعلتك شيئا كبيرا حيث لم تكن من  
قبل شيء » •

أجاب مهذار في ثقة « انك افسدتني وقتلت ضميري وخنقت  
أحاسيسي الانسانية • جعلت منى بوقا وطبلا وصناجة • جعلت  
منى لسانا عريضا لامجدك وارفعك واغطي عيوبك ومخازيك • ولقد  
فعلت ما فعلت وأنا أكبح شعوري بالاحتقار تجاهك » •

فأبتأس السلطان المخلوع لهذه الصراحة المؤلمة وسأل مهذار  
« ومن يدريك ان السلطان الجديد خير مني ؟ » •

أجاب مهذار « انه ليس خيرا منك بل مثلك • ولو كان خيرا  
منك لقتل خداعا مراوغا مثلي • ولكنه لم يفعل لانه يريد طبلا وبوقا  
وصناجة وليس ثمة من هو خير مني » •

سأل السلطان أخيرا « متى تموت مثل ميتتي ؟ » •

أجاب مهذار « سأموت مثلك عندما يأتي سلطان صادق عادل •  
وآنذاك لن احس لحياتي أية قيمة بل أكون مسرورا لانني اترك  
من بعدي شعبا كريما واعيا » •

مضى مهذار مبتسما وكأنه لم ينطق بكل هذا الكلام الخطير  
تاركا السلطان المخلوع يتلقى ضربة السيف على عنقه •

## شيزوفرينيا

كان الخبر الذي نشرته الصحف قبل نحو تسعة أشهر مثيرا حقا ، نشرت في حقل الجرائم ان شخصا معروفا في الوسط الفني كناقذ مسرحي قد قتل زوجته طعنا بالسكين وسحق راسها بحجارة ضخمة في مكان غير مأهول في ظاهر المدينة، وقد تركها تتخبط بدمائها وانصرف الى بيته وكان لم يحدث له شيء ولم يرتكب جريمة عقوبتها الاعدام . وعندما ألقى القبض عليه وجوبه بالتهمة ، أفاد أنه لا يدري ماذا حدث ولا يتذكر من المسألة شيئا بل هو نفسه مندهش من غياب زوجته عنه ليلة وقوع الحادث .

وأخذت القضية تتطور شاقة طريقها القانوني المعتاد . مثل الناقد المسرحي أمام القضاء وألقى دفاعا مستفيضا بارعا ضمنه ذخيرته اللغوية والاعيبه الكلامية زاعما أنه فنان وأديب شديد الحساسية ، كره أن يرى زوجته تشسف بحب غيره وتخونه سرا ، واذا ما علم بأمرها اقدم على قتلها وهو تحت حوافز غير واعية وغير ارادية كالتي تصيب الانسان في ساعات اليأس والمحنة .

ومن الطبيعي ان كل قضية يشم منها رائحة اللاوعي تنكاثف الى اصطلاح نفساني يسمونه الشيزوفرينيا . اي تنشط ذات الانسان الى اثنتين ، احدهما تريد والاخرى لا تريد ، واحدهما تأمر والاخرى تأبى ان تطيع ، وتختصم الذاتان وتتصارعان في معزل عن ارادة الانسان . الشيزوفرينيا هي التفسير الامثل لكل جريمة يراد لها التبرير والتعليل ، وقد قلت لنفسى ان الناقد المسرحي سوف يقلت من العقاب ، وقد وقع ذلك فعلا . احيل الى مستشفى الامراض العقلية وخرج التقرير من ذلك المستشفى مرصعا بالشيزوفرينيا ، أي اطلقوا سراح القاتل . طريف أمر الشيزوفرينيا يستطيع الشيزوفريني أن يهدم بغداد ويحرق البيوت ويزهق الانفس ولن يخطو خطوة واحدة نحو السجن .

مضت أشهر واشهر ثم التقيت مع الناقد المسرحي ذات مساء في مسرح يعرض مسرحية عطيل . لم اتوثق من شخصيته بادى الامر ، اذ كانت شهور المحنة والمعاناة قد خلعت على سيماه مظهرا

قاتما كتيبا . كان اكثر اسمرارا وأثقل وزنا وأحد نظرا وقد طلعت  
له شعرات بيضاء عند صدغيه . كان مثله دائما يحمل كتيبا وكراريس  
وعليه امارات الرجل الوقور المستريح الضمير المعني بالفن . دفعته  
المصادفات أن يقعد الى جانبي فتبادلنا التحيات كأي انسانين التقيا  
صدفة في مكان واحد . قلت له « انني أشهد مسرحية عطيل لأول مرة »  
أجاب « وأنا كذلك ، الا اننى قد قرأتها منذ حين ورأيت لها فيلما  
في السينما » ولم ييخل على شكسبير بكلمات مديح كبيرة ، ساردا  
بعض ملامح المسرح الشكسبييري سرد معلم متفهم متتبع ، واثنى  
بصورة خاصة على عطيل التي صور فيها شكسبير الغيرة والنفق  
والانتقام . اطفئت الانوار وتباينت المشاهد وجاء عطيل ليخنق  
ديدمونا . دخل عليها في غرفة النوم محترسا زائغ البصر تلمع  
سحنته السمراء وكأنها البرونز ، يتلو دوره الطويل وكأنه راهب  
في مناجاة ألهية ، ثم انحنى وقبلها ، فاستفاقت ديدمونا من النوم  
وتساءلت من هنا . . . عطيل . . . الا تأتي الى السرير يامولاي .

قلت سائلا الناقد المسرحي « ماعنى هذه القبله ؟ كان يجب  
أن يطعنهما بالسكين ويمزق أحشاءهما اربا اربا ويسحق رأسهما  
بحجارة ويهرب الى مكان بعيد ويتظاهر بنسيان الحادث » .  
نظرني مليا وبدأ وكأنه يستذكر حادثة ما ، ولكنه لم يتوثق  
ان كنت اتحدث عرضا أم اهدف الى غرض معين . ولاشك ان الطعن  
بالسكين وسحق الرأس بالحجارة والهروب والتظاهر بنسيان الحادث  
كان لها ردود فعل عنيفة في نفسه .

قال في هدوء وكأنه يحلم « حتى في القتل على الانسان ان يكون  
رحيما مؤذبا ، فلا يقتل بضربات اكثر مما تستلزمه عملية القتل » .  
قلت « ان القتل في بلادنا لا يصطنعون الرحمة والتأديب » .  
قال في أسف « الجهل وعدم التروي والمبالغة في الانتقام » .  
تمتعت مع نفسي « والشيزوفرينيا أيضا » ومضى الحوار بين  
عطيل وديدمونا ، حيث يقول عطيل « كنت ذات يوم في حلب واذا  
برجل يشتم احد اهالي البندقية ، فأمسكت بعنقه وطعنته هكذا »  
فيطعن نفسه ثم يسقط على السرير . . .

هتفت « رجل نبيل شعر بضخامة خطاه فآثر أن ينتحر بدلا

من أن يعيش بضمير معذب « حتى هذه اللحظة لم يتوَقَّع من انني اعنيه بالذات وهذا ما كبح جماح غضبه .

سأل في ارتباك « من تعني ؟ » .

قلت « اعني القاتل الذي يترك ضحيته في عرض الشارع ،

ويذهب الى بيته لينام في ارتياح » .

اضيقت الانوار واخذ المشاهدون يتزحزون عن مقاعدهم

ناثرين همساتهم وتعليقاتهم ، يخطون في تراث صوب الباب الكبير .

توقفنا لحظات وفي كل منا رغبة عارمة في أن يصل الى نتيجة ما .

كنت أريد ان اذكره بجريمته وكان يريد أن يتحقق من انني اعنيه .

لقد سدد الى وجهي نظرات ملتهبة بحب الاستطلاع ، وعندما بلغنا

الموضع الذي يحتم على كلينا التبعاد والانصراف قلت في مرارة

وسخرية « يبدو ان في ايام شكسبير لم يكتشف بعد مرض

الشيذوفرينيا والا لارتاح ضمير عطيل ولا من عقاب ولا عذاب

ولا سجن ولا هم يحزنون » .

حملق في وجهي في رعب « أنت تعرفني .. أنت تعرفني ...

أنت تعنيني بالذات » .

قلت في برود « لا داعي لكل هذا الهياج . اقول ان بعض الناس

يختصرون حياة البعض الآخر ويبعثونهم قسرا الى قبورهم ولا يهمهم

بعد ذلك أن يغشوا المسارح وينظأروا بالثقافة ، لان عالما من العلماء

اكتشف الشيذوفرينيا وبرأهم مما يفعلون ويرتكبون » .

انصرفت عنه وكلانا مهتاج نادم مشمئز من أمر ما ..

## وراء سياج المرقص

كان التنزه ملذاً في ذلك اليوم الشتائي المشمس من شهر تشرين ، حيث خفت عند الظهيرة زرافات من الصبيان والطلبة والنسوة مختلطة بها زرافات أخرى من العمال الرقيق في الحال ، انحدروا من جوف المدينة الكثيب البائس . فلتجمع هذا الشمل العظيم في منطقة البارك التي نالت اعظم رعاية من بلدية المدينة . الشمس دافئة تسكب خيوطها اللامعة في ضخامة وسخاء كشلال عظيم فائق العذوبة . ناشرة في اغصان الكازورين والكالبتوس والسرور بريقاً متألقاً زاهياً . كانت القصور القلاعية تنهض في براعة من اعماق الطين تزينها الشرفات السمنتية المظلمة ويحيط بها الورد والياسمين ويفرش أرضها العشب السندسي الاخضر تردد في خفوت تغاريد الطير تتجاوب في مرح من خلل الاغصان المتأودة مع مداعبات النسيم .

في نهاية المدى الذي ينوشه طرف المرء ، تقوم ابراج معامل الطابوق مصعدة في قوة ، نحو السماء ، ملطخة هنا وهناك بشعائم الدخان وخط رفيع اسود يتعرج عند افواها ٠٠٠ ان حركة دؤوبة ما برحت تنشط هناك ، وان رجالاً بأسمال بالية يسعون بلا هوادة في اطراف المكان ، دافعين عرباتهم الصغيرة في الفسرن المتأجج معرضين صدورهم المضعوفة لتيار الهواء الواخر ٠٠٠ اكوام بالغة العدد ملأى بنفايات البيوت والمطاعم . ان الناس لينتشرون على الارض الرحبة في تفسح وتباعد كما لو أنهم عازمون على استحواذ على أكبر مساحة من الارض .

وعند الساعة الرابعة طفق مهرجان المتنزهين ، خرجت النساء مائسات بمعاطف الجوخ الثخين ، ينقرن البلاط النظيف المصقول بأحذية عالية ، ناشرات على رؤوسهن المكحلة بشعر غزير عصائب حريرية مزركشة واخريات قد جززن شعورهن على طريقة الصبيان ، وتخطى الرجال الحيارى ذاهلين يرمقون الوجوه المليحة في شره وفضول واعجاب .

كان ابراهيم قد اقتعد كرسياً في واجهة المقهى ، يغمر شعاع الشمس الحار جسده بأسره كما لو انه يعتزم تجفيفه ، يطيل نظراته

اللامبالية في ضجر ، عاجز عن إيجاد مبرر لخروج هذه الجموع الى الحدائق . يفضح لباسه التافه المتكون من سترة أمريكية مستعملة وسروال وسخ مدعوك عن رقة الحال ، الا أن عينيه العميقتين الدافئتين وجبهته المرتفعة تكشف جميعا عن ذكاء والمعية وعزم . عطف رأسه لاوراء بغتة مستيقظا على صوت ينادي اسمه .

– هالو ابراهيم مساء الخير .

كان القادم مهتما حليق الوجه ، تتألق وجنتاه الصقيلتان باحمرار طافح ينبيء عن صحة جيدة ، مرتديا سروالا من السرج وقمصنة من الجلد البني الغامق محزومة حول خصره بعناية .

سحب يعقوب كرسيه بيده متمرسا قوية ، وحط عليه جسده القوي وتابع يقول : يبدو لي انك منشرح .. هلا نظرت ، كل شيء يشع بالحبور والابتهاج .. ها هي بغداد ..

أجاب ابراهيم في تأمل :

– « بلى هي نفسها بلد الرشيد والمأمون . آلاف من الحطام البشري المستهلك يركب اليها الركائب ، الوريث الاخرق تجذبه حاناتها ومواخيرها ، والعامل يسعى الى معاملها وأرصفتها شوارعها والمريض يلتمس مستشفاهها ومقابرها والتلميذ يطرق أبواب معاهدها واصحاب الحاجات يدبون في جحافل وارتال ، تقذف بهم القطر والسيارات والسفن » .

ظلت الابتسامة عالقة على محيا القادم الجديد وقد انفرجت شفاه كاشفتين عن صفين من الاسنان الشبيهة بالعاج ، رد على صاحبه مداعبا « اذن هي مغناطيس » ..

– لا بل هي البالوعة الكبرى .

تنهد يعقوب وهو يغمض عينيه نصف اغماضة .

– ايه بغداد بلد الرشيد ... لكم من اقوام داسست على ترابك ، انك لتنظرها وقد غدت متحفا للآزياء من عهد بابل والاسكندر الى عهد الروم والكلدان والأتراك والانكليز ... هاته السيدات انهن كالطواويس النافرة ، متحليات بكل غال ورخيص ... انما يبدو لي اننا مقبلون على حضارة زاهية ، لقد قيل ان الحضارات تبدأ برصف الشوارع العريضة ، وها هي ذي قد رصفوها لنا » .

سرت عدوى الابتسام الى ابراهيم ، الا أن هذا شجن معها  
قدرا طيبا من السخرية .

— هذا زعم باطل ايها الصديق ، ان حضارتنا قد زهت منذ  
عهد سحيق ولكننا تباطأنا وعدنا القهقري في احيان كثيرة حتى  
غدونا نستمر السبيء من الفعال ونفاخر بما لدينا من قشور زائفة . .  
كل ما لدينا هو قشور ليس غير .

— «قشور . . اجل قشور» تتمم يعقوب . .

— « لنا دور للعجزة وجميعيات لمكافحة السل والتسول  
والتشرد واخرى للعلل الاجتماعية ، ولكنك اذا ما كنت في الشارع  
اصطدمت بالآلاف العجزة والمرضى والمشردين . . ترى من يعنى بكل  
هؤلاء ؟ من يكفل لهم العيش الكريم ؟ ان الجوع محنة كبيرة  
ياعزيزي » . .

ان الشمس لتجنى في هذه الآونة نحو الغروب ، قد اختبأ  
بعض من قرصها العظيم المحمر وراء الابنية الناهضة فاستطالت  
ظلالها السمر وفرشت أرض الشارع كسجاجيد كامدة اللون ،  
وظفقت ضباب مزرق يتصاعد عبر الفضاء . واذا ما ابعدتهما خطواتهما  
الرخوة عن مكان الاحتشاد عثر يعقوب على شيء يقوله فغدا يغفم  
فكلام كثير مضطرب هادفا تزجية الفراغ ، حتى سأل ابراهيم صاحبه  
عن عدد الانفار الذين يعيلهم .

— انهم ستة . . تصور اي هرج يسود المنزل في الصباح . . .  
لي شقيقة أرملة لها ثلاثة اطفال ، ووالدي هرم مهشم ، والوالدة  
قد قضت نحبها في الشتاء الماضي بعد ان اتخمت هموما ووجعا .  
منزلنا ضيق صغير يضم غرفا اشبه بغرف التوقيف في مراكز  
الشرطة ، معتمة ، كئيبة ، منخورة الجدران . اقول ان زوج شقيقتي  
المتوفى كان نجاراً نسيطا حادباً على زوجته واولاده ، وقد اتقنت الحرفة  
على يديه . . ثم كانت وفاته . . اصيب بحادث داخل المعمل .  
أفلت المنشار الكهربائي وبتر ساعده واحداث جرحا عميقا في الصدر ،  
فتمدد يثن فوق النشارة الجافة التي امتصت دمه المنزوف . . انه  
قد مات . مات ميتة سريعة خاطفة كالطير الذى يطبق عليه الصقر .  
— والتعويض ؟ سأل ابراهيم بلهفة .

- كان تافها انفقته الارملة في ثلاثة اشهر .

كانت الظلال تستطيل باطراد حتى غمرت الطريق وثرنحت الشمس ببهاثها العظيم متوارية شيئا بعد شيء حيث تصدر السماء قمر شاحب كليل يسترق نظرة حية معتذرة ، يدب ببطء كبير كجندي متعب يتسلم دور المناوبة . تلاحت حافلات الباص بازيها الزايق الحاد ، تلتصق في جنباتها الاضواء الباهرة . كان ابراهيم يطيل النظر الى ركبها وكأنه يستبجث فيها عن احد ، واذا ما بلغا العلوية عرجا في اتجاه المسبح ، فضلل زحام المارة وتخفف الشارع من وطء الخطى وهب نسيم الليل البارد الندي العتيق بشسنى الازهار .

وقذف من المنتأى القيثارة والبيان مع ضربات طبل كبير تدوب جميعا في اغنية دائنة تطلقها حنجرة نائحة اسوانة تتشكى باكتئاب . ضجيج المعمل ومضايقاته والاصوات الناشزة الكريهة المنبعثة من المصفاة الكهربائية وارتطام الاخشاب الكبيرة وهدير الآلات الصاخب المجلجل ، كل ذلك قد اثقل على نفسيهما . . . واما ههنا فقد تفرس كل شيء ناعسا في هجعة منومة لذيدة .

استند الصديقان بسيماح المرقص الفولاذي واصاخا السمع . كانت سيارات فخمة كثيرة مرصوفة على امتداد الطريق وجمهرة من السواق يتبادلون الحديث في همس ، ورجل اسود مجلل بمعطف رمادي يستقبل الرواد عند البوابة الكبرى ، يتمشى ويتشمس ، ومن مكان بعيد تلوح مدخنة معمل ودخان حليبي يتصاعد كالنافورة ، وثمة سيدات متألقات بالجواهر والزينة مكشوفات الصدر ، يذرعن الرواق جيئة وذهوبا وعلى شفاههن القرمزية ابتسامات عذبة بالغة الظرف .

من الجهة المعاكسة تقوم أشجار الغرب والطرفة متشابكة كعروق الدم في جسم الانسان ، يرين عليها صمت ثقيل لا يكدره سوى نقيق الضفادع المتصاعد في رنابة مضجرة ، ودجلة يدحرج مياهه الطينية في فيض متلاحم قد انعكست عليه اشعة القمر على هيئة فرجال ، رأسه في السماء المخملية الزرقاء وذراعه مغروزان في اللجة . ان مشاهد كثيرة مفعمة بالكآبة والضيق قد استعرضها

هذا النهر في جريانه الطويل من الكاظمية وضفتي بغداد والكرادة ،  
وههنا تتسمع مياهه المودعة المنسابة الى عزف القيثارة وقرع الكؤوس  
وضحكات السعداء ..

سار الصديقان بحذاء السياج الفولاذي حتى انتهيا الى كومة  
عالية من الطابوق الجديد المعد للبناء . صاح يعقوب مشيرا اليه :  
- « اسرع ، لنرتق هذا الكوم من الطابوق ونجلس عليه » .  
قفز قفزة رشيقة وقرفص في مكان عال ، وتبعه ابراهيم وجلس  
الى جواره في غير ما عجلة فتنهد وقال في تساؤل :

- ما اغرب هذا ... المتسولون يقتاتون على فضلات المطاعم  
وهنا نحن نتسلى من فضلات المراقص ... الناس جميعا متسولون ،  
كل بطريقته الخاصة . كل ضعيف هو قوي تجاه من هو اضعف منه .  
بعضنا يذوق بأس بعض ... هذه سنة حياتنا .

قال يعقوب مفسرا وجود المرقص .  
- لم يكن مرقصا في أول عهده . كان كازينو فقط يقصده  
الناس أجمعون ، والاجرة عشرون فلسا ، ثم ارتفعت الى خمسين .  
انهم اليوم قد جعلوه مرقصا .

تلاشى الغناء اللطيف والنبثق عزف عاصف ترافقه أصوات  
ضاحجة مبجوحة مع اصوات اخرى ثاقبة حادة من الطرب الذي ينشد  
في حفلات الزنوج .  
سأل يعقوب :

- هل شهدت شيئا كهذا في بلدتك البصرة ؟  
تنهد ابراهيم وقال « البصرة فينيسيا العراق ، الا أن فيها  
مايدمي القلب . سأقص عليك حكايتي فيها » وشرع يقص حكايته  
كاستاذ يوضح مسألة « عملت ذات مرة في معمل ضخم للتجارة . كان  
المعلم احد مشاهير النجارين في نجر العراق (العباس) محله بارز وله  
شهرة ذائعة . داومت بضعة ايام تجلت لي فيها صور الاستغلال  
التي يمارسها المعلم مع عماله المساكين . فوفد علينا ذات يوم مفتش  
من مديرية العمل فتحيرني من دون العمال جميعا ليسألني  
ويستوضحني عن أحوال العمل . سألتني عن الاجور والاجازات وما  
الى ذلك . كان من المنتظر أن أقول خلاف ما رأيت وإن أمدح واطنب

كان عليّ ان اكدب واخون ضميري وقد رمقني المعلم مشجعا ان  
استرسل في أكاذيبي . ولكنني قلت الحق .

— كلا أيها الرجل نحن لانتمتع بقانون العمال ، فالاجازات  
المرضية والاعتيادية تكاد تكون معدومة ويفهمها المعلم على انها نوع  
من التبطر والكسل ، والاجور واطنة لانكفي لاعاشة العامل وعائلته  
والعمل الاضافي بخس لاتدفع قيمته في غالب الاحيان ، ونحن نعمل  
عشر ساعات لا ثمانى ، سجلات المعلم اعتباطية مزورة .

— حقا هذا ! انك لبطل يا صديقي .. كيف تجرؤ ؟ « هتف  
يعقوب في شدة .

— لم أجب ؟ يجب أن نكشف آلامنا جهرة للناس .. ها  
انظروا أية حياة هي هذه .

— وماذا بعد ؟ طردوك من غير ريب .

— طردوني من غير ريب ... شملتني البطالة عدة أشهر ،  
واستهزأ بي العمال أمر الاستهزاء ولم اشتغل في ايما معمل بعد  
الذي وقع ، وسرت عنى اشاعات مختلفة مدارها انني مشاكس ارعن  
قليل التبصر في مصالحي . وبعدها زحفت عليّ جفاف البؤس  
مدندنة كالبعوض ، آخذة بتطويقي ونهشى . كانت تلقى على منزلنا  
يوما بعد يوم ظلالا اشد قتامة وابتعد غورا في الفاقة والعدم . غدونا  
نحس بالطاحونة الجلمودية لتفتيت الكائنات البشرية التي خلقها  
الله على أحسن صورة .

وذات ليلة مدلهمة سوداء في جوف الصيف اللافح ، حيث بدأ  
كل شيء متشحا بالصمم ، عدت الى منزلى فى الزبير وهو يبعد نحو  
ثلاثة أميال عن مركز المدينة ، عدت مشيا على الاقدام ، قد بلل العرق  
حذاي واطلى قدمي بمعجون صمغى لزج متعفن ، عدت يائسا منهوكا  
قد خابت جهودي كلها فى ايجاد عمل ، دلفت الى منزلي زافرا  
أنفاسي في غيظ وتترشح من نظراتي نذر ثورة مريعة ، لقيت الوالد  
مستلقيا على حجارة الارض فى وهن ووالدتي الى جاره تهدؤه من وطأة  
الجوع الذى يعانيه ، ولما أحسا بوجودى هشا وبشا وحسبا انني  
احمل اليهما الطعام .

قلت بلا تمهيد « ماذا افعل . البطالة مستحكمة » فتنهد

والذي وسمعته يقول في صوت مخفوض ضعيف : « أنا جوعسان  
سأموت الليلة » . لم تبق لي أية مسكة من عقل ، هرولت الى المطبخ  
وتناولت بلطة كبيرة وخرجت الى الطريق أما ذلك الشيء الذي يسمونه  
قانون العقوبات فلم يخطر لي على بال .

هرولت مسرعا هازئا حتى بالجريمة نفسها . تذكرت وانا  
على الطريق طباحا هنديا ، يدير مطعما صغيرا يقع على بعد يسير .  
قلت لنفسى : لا بد أن يكون فى مطعمه بقية من طعام ، سأنزع القفل  
واسرق كل مااتصل اليه يدي ، استحسننت الفكرة وراقت في خيالي،  
ورحت أتمثل ذلك الطباخ القمى المطلي بهباب المداخن والمكشعر عن  
سنان صفر منخورة ، كيف سيهلع من ضخامة البلطة ويخر  
متصدعا من الرعب . قطعت نحو مئة خطوة ، فأعترضتني على الطريق  
سيارة لوري محملة بالسّمك . كان ثمة حمال واحد يرسل شيخيا  
مزعجا من خيشوميه الكبيرين ، قد صرعه التعب واستنفد قواه .  
يضيئ عند رأسه مصباح صغير عكر الزجاجاة ، والسائق يغالب  
النعاس على المقعد .

تقدمت بحذر استرق النظرات في احتراس كأحد ابطال الافلام  
البوليسية . جذبت سمكتين وعدت بهما الى المنزل في الحال ، شويتهما  
بأعواد الخشب ودعوت والدي للعشاء فانتعشا بعد الاكلة اللذيذة  
وشاع في وجهيهما ماء الحياة . قلت لابي « انظر ما الذي فعله فيك  
الجوع ، عمرك يطول بالاغذية الجيدة والجوع يقتلك بيوم واحد »  
لكم وجدت الجريمة في تلك الليلة عملا بطوليا ، انه ليفوق اعمال  
الاسكندر .

الموسيقى الهشة المصطنعة بايقاع ناعس قد ارتفعت من جديد،  
وترأت الاذرع البضة تحت أضواء المصابيح وتجاوبت الضحكات هنا  
وهناك ، قفز الصديقان الى الارض ومرا بجماعة السواق . كانت  
سنة من الكرى قد اسلست قيادها في اجفانهم فهوموا وتشاءبوا ، وتسمن  
القمر القبة المخملية الزرقاء ناشرا وهجا مخضرا وبدت تمم الكاليتوس  
المتشامخة المطلقة لهاحرية النمو تتراقص في مرح وتوشوش في  
همس خفيض والشارع المقفر من السابالة يعكس زفته الاسود  
المصقول شعاعات نحاسية بارقة . همس ابراهيم :

— المدينة هاجعة في سبات ، كالثعبان الجبار الذي جمده البرد .  
ستخرج مع الفجر الوجوه التعبانة تنقب في الفجاج . مذعورة قلقة  
تبحث عن شيء يصح هضمه في المعدة وعن بوارق أمل . آه لكم  
هي الانفس في شوق الى الجديد . انها لتسفك دماءها في سبيل أن  
تري الجديد » .

عرجا على اليمين وجرا نفسيهما فوق الربوة الخفيضة حيث  
كان النهر يقذف بتياره الجارف ضاربا الشاطئ الرمل الهش ضربات  
واهنة وهدير ماكنة مركب يشق حيزوم الماء على الضفة الاخسرى  
ونداءات عميقة لا تكاد تصل الاذن .

تنهد ابراهيم « لم يتحمل الناس هذه الآلام ، ومن فرضها  
عليهم ، ومن أراد لهم ان يكونوا يؤساء . هذه هي القضية .  
أجاب يعقوب شاعرا ان الكلمات المناسبة تعوزه فاختلفت شفتاه  
ومن اسنانه المطبقة قال : تلك هي القضية . . . . قضية يؤس الانسان  
وقضية كفاحه لدفع الظلم وخلق العالم الجديد » .

## حب الاستطلاع

حب الاستطلاع ميزة طيبة لدى بعض الناس تقودهم أحيانا الى معرفة أمور كثيرة سارة وتقودهم أحيانا الى متاعب ومصاعب ومازق . . ويقال ان نيوتن اكتشف الجاذبية عن طريق حب الاستطلاع وربما ركب ماجلان البحار السبعة وأثبت كروية الارض وهو مستطلع ، وزج الفتية المغرورون أنفسهم في بحر الظلمات وهم مستطلعون . ولكن صاحبي وقع في مأزق من جراء تعلقه بحب الاستطلاع .

قال « انني من المولعين بحب الاستطلاع ، يقرب ولوعي ولوع بعض العقلاء في جمع الطوايع البالية الوسخة . هذه الهواية لم تسترع اهتمامي في يوم من الايام . انها هواية الكسالى الذين يجري في عروقهم حب المتاجرة وكسب الارباح ، كما انني لم أهو الشطرنج لانه متعب للفكر فيما لا ضرورة لاتعابه ، وانه يفيد اولئك الذين يشكون الروماتيزم والتهاب المفاصل وضغط الدم ، والمولعين في اطلاق الزفرات وفرك الجبين واتخاذ هيئة العلماء المفكرين في حين انهم لا يعدون أن يكونوا مقامرين كسالى . ان هوايتي أن أدرس حياة شواذ الناس ، كيف يعيشون ويفكرون ويسلكون . ذهبت الى كل مكان خطر ببالي ، وتحملت متاعب ومضايقات لا سبيل الى تفصيلها . ان الانسان ليس حرا في الدخول الى المكان الذي يريده ، ثمة حراس وشرطة واستفسارات واثارة شبهات وإبراز هويات ولا يمكن لاحد ان يقول انني فضولي مستطلع ادرس حياة شواذ الناس ، لان ما من مكان يرحب بالفضولي ويود ان يجعل من نفسه فرجة له ولكنني على أية حال دخلت بشتى الاعذار ، فقد رافقت اقرباء متوفى الى المشرحة وحملته بيدي الى تابوته ، ودخلت السجن في ايام الزيارات العامة ، ورافقت اصدقائي الصحفيين الى الملاجم والميامم والمعاهد والمدارس الداخلية والمعامل والمكاتب وأبدت من الاهتمام أكثر من رفيقي الصحفي ، ومشيت وراء الجنائز الى مثواها الاخير وكنت اقرب الناس الى حفار القبور . الا أن المكان الذي اخترته أكثر من سواء للممارسة حب الاستطلاع هو مستشفى الشماعية ، فيه الصفوة والصفوة من ملتائي العقول والشواذ الزائغين .

اسلك في طريقى الى المستشفى طريق مدينة الثورة ، فهناك  
خط للباص يخترق الثورة بكاملها حتى يصل الى تخوم معامل الطابوق ،  
ومن هناك تنفسح أرض شاسعة ، وكأنها قطعة من البيداء ، يستغرق  
اختراقها نحو نصف ساعة مشيا على الاقدام ، تنتهي الى سكة قطار  
كر كوك ، وتقوم عندها محطة صغيرة للقطار مبنية من الطين ومحاطة  
بأشجار السنديان الباسقة . واذا ما وطأت قدما الانسان الشارع  
النظامي أخذناه الى مستشفى الشماعية بعد اجتياز عدد من الابنية  
ومبنى المدرسة الإصلاحية . هذا المستشفى هو موطن الشـسـواذ  
الملفوظين من المجتمع الرزين الهادى .

وصلت ذات مرة الى المستشفى عند الظهر ، وفي هذه الفترة  
من النهار يخرج عقلاء المجانين لجلب الطعام الى من دونهم عقلا ، اولئك  
القابعين في الردهات في شبه دھول يهدون هذيان المحموم ، عليهم  
أسمال بالية في غاية الرئاسة والوساخة . اما الداهبون لجلب الطعام  
من المطبخ الكبير فيتمتعون بحواس سليمة وصحة جيدة ، والله اعلم  
ما في العقول . تبعت أحدهم وكان يبدو لي متزن المشية نظيف الثياب ،  
في قدميه جورب وحذاء ، كان في ريعان الشباب وفي اوج النضوج  
الجسماني ، ولكنه لم يبد شرسا ، فلا يخيفني من المجانين الا  
الشرسون منهم . مشيت خلفه حتى غدوت على قيد خطوتين منه .  
خاطبته في مرج من وراء ظهره .

— لم لا ينقلون اليك الطعام بدل ان تنقله للآخرين ؟  
استدار بكامل قامته ونظرني مليا وابتنسامة مريحة تتلاعب  
على شفتيه . قال في عتاب :

— « هل تتمنى هذا لي ؟ »

قلت « اتمنى لك مزيدا من الراحة »

قال « وهل يطمع الانسان في خير اكثر من هذا الخير ، ان يتنزّه  
بين الاشجار وفي نهار مشمس وفي يوم من ايام الربيع ، فيصفو  
فكره وترتاح نفسه »

قلت « مبارك لك هذا النعيم »

قال « اننا العقلاء يكرمونا بهذا الواجب ، اما سوانا فقد اقلوا

من دونه الابواب »

سألته « ماهي مهنتك ؟ »

وبدون أي حياء اجاب وكأنه يقول اننى ملك قال «نشال»  
واستطرد يتحدث « عندما يغلب الجوع معدتي ولا أجد درهما فى  
جيبى لا ابتاع ما أسد به رهقى ، وعندما ارى المأكولات الدسيسة  
اللذيذة تشق طريقها في أفواه المترفين السعداء ، وعندما أرى  
ابتسامات الارتياح على الوجوه ، أقول لنفسى لانتقم انتقاما صغيرا .  
لا أقتل ولا اجرح ولا ائلم عرض أحد ولا أكذب ولا أنافق انما انشل  
ما في الجيب من دريهمات . واقل الاشياء خسارة للانسان هو ماله ،  
وبالامكان أن يتجدد كل يوم في الجيب ، على حين لايتجدد العمر ولا  
الصحة ولا الشرف ولا الساق المبتورة ولا العين المقلوعة .  
قلت في نفسى هذا فيلسوف ومفكر ..

سألته « اذن كان من الانسب ان تكون فى السجن بدلا من ان  
تكون فى مستشفى » وأردت أن أقول للمجانين الا اننى اسكت  
احتراما لكياسته .

قال في توكيد « اننى فضلت أن أكون فى مستشفى المجانين ،  
بين هؤلاء البسطاء الابرياء ولا اكون بين القتلة والمجرمين » .  
كان جذابا رائعا لمست فيه المعية وحصافة فمالت نفسه اليه  
ورافقته في المسير . قلت له «انها مهنة طريفة تعتمد على الذكاء وخفة  
اليد » ..

أجاب « الى اقصى الحدود » .

همس الشيطان فى اذني لم لا اشهد جانباً من براعته  
سألته : كيف تنشل ؟

قال فى سرعة وارتياح « تريد ان تعرف ، تريد ان اريك ..  
حسنا » جذب رفيقا له من ياقة جلبابه وهو يقول « نفتعل أنا وزميلي  
مشاجرة موهومة ، يكيل اللطمات أحدا للآخر وهكذا » وشرع يضرب  
رفيقه ضربا مصطنعا في براعة المتمرس بالمشاجرات الغوغائية . قال  
« أنت تحجز بيننا ، تبعد أحدا عن الآخر ، افعل ذلك بقوة وحزم .  
ضع يديك على كتفي وابعدنى عن خصمى ؟ » .

وضعت يدي على كتفيه فانحنى جسدى الى الامام قليلا ،  
وانحلت ازرار سترتى ، وتهدلت جيوبى ، وزحف حزامى عن مكانه ،

وتطايرت ربطة عنقي ، واصاب شعري الاختلاط والتشويش .  
وشعرت ان اقداما ثقيلة سحقحت خذائي . قلت في نفسي « مالي  
وهذا المزاج الثقيل » فانتحيت جانبا في عسر وانا اقول له « حسنا  
فهمت » .

خرجت الى الشارع وانا فرح بلقاء نشال نصف عاقل ونصف  
مجنون ، فضل المستشفى على السجن . ركبت سيارة الباص فسي  
مؤخرتها اذ كانت تغص بالجالسين ، أفلعت من باب المستشفى بين  
هرج الراكبين وحشد صغير من المجانين يطلب صدقة وسكائبصون  
بائس ذليل . علق أحد الركاب « المجانين مشعوذون » فرد عليه  
الجابي « لا تقل هذا انهم مرضى بائسون » ثم أخذ في توزيع  
البطاقات وجمع الاجور ، فاشتد النقاش وتعددت الاراء هل ان  
المجانين مشعوذون أم مرضى ، ولما دنا الجابي منى مددت يدي الى  
جيوبى لاستخلص الاجرة ، فلم اعثر على شيء من المال فخجلت  
وارتبت . اردت محفظتي فلم اعثر عليها ، لقد نسلني من حيث  
لا ادري . فشمع الجابي بحيرتي ورق لي قائلا « لعلك نسيت  
دراهمك » قلت في غضب وحنق « نسل دراهمي مجنون فسي  
المستشفى » ولكن ما ذنبي انا ان افقد ما معي من مال . انها بلاشك  
عقوبة حب الاستطلاع .

## مثقال من ذهب

حين اجتاز جابر شهادة البكالوريا للصف الخامس اضطر الى مغادرة الناصرية والنزوح الى بغداد للالتحاق بكلية الحقوق ، وقد لاقى الامرين من جراء اقامته فى فنادق العاصمة ، فثمة ازعاجات موصولة ومضايقات تترى فى الليل والنهار من نزلاء اكبر منه سنا ، يضجون فى الممرات وعلى السلالم ذاهبين ايبيين ، يسعلون ويصقون ويهدرون من افواه وسخة منخورة الاسنان ، ولا تكاد المغسلة تنجو ساعة من منظر مفز زثير ، فقد يخرج احد النزلاء بملابسه التحتانية كاشفا عن ساقين هزيلتين قصيصتين يتمخط ويبربر أو يتخطر آخر ببطن مسترخ مندلق وصدر محفوظ اشبه بدلاكى الحمامات .

ويوم عثر جابر على منزل الحجية نورية كان نصرا مينا ، افردت له الحجية الورعة فى الطابق الثانى غرفة نظيفة ، مكسوة أرضها بالطابوق العريض وبطل شباكها الوحيد على زقاق ضيق قليل الضوضاء .

كانت الحجية فى غالب ايامها تتربع فى ايوان المنزل على بساط عتيق ، تستقبل زائريها من الجيران ، تسقيهن الشاي وتقدم لهن سكاثر ذات اعقاب فى سبيل الثروة ورواية النوادر والحكايات .

كان مجرد وجود هاتيك النسوة أو وجود الحجية نفسها مدعاة لاستئناس جابر ومسرته ، اذ كن يضيفن على المكان صفة الحياة المنزلية الطبيعية ، ولذا فقد رقت حاشيته وزايلته وحشته وارتاضت شفتاه على تحية النساء والابتسام لهن . ولحدائة عمره وضاللة جسمه وتورد وجنتيه الطريتين الناعميتين ، كن ينظرن اليه كاحد اخوتهن أو ابناهن ، فلم يكن يتحرجن أو يتململن أو يملن الى الانزواء وادارة الظهور شأنهن فى حضرة الرجال البالغين الكبار . ويخلو النزل منهن عادة مساء كل خميس وسحابة نهار الجمعة ، حيث تذهب الحجية الى الاعظمية لزيارة ابنتها .

وقد لقي جابر من دونهن امرأة فى مثل عمره لما تبلغ العشرين غريبة طائشة تميل الى النزق والثروة ، يدعونها شكرية ، وقد تزوجت برجل لا يتقن ايا من المهن ، ولذا كان معظم دهره عاطلا ، قد انجبت منه طفلة اسمتها شادية تبلغ من العمر ستة أشهر .

كانت ذات بشرة نحاسية وعينين خضراوين واسعتين مليئتين  
بتعبير صبياني حار متدفق شبيهة بنساء جزر الهاواي ، ولها جبهة  
ضيقة ينبثق من أعلاها شعر كستنائي عميق يهطل في ضفيرة خلف  
ظهرها . فتنته هذه الزوجة الشابة واستأثرت باهتمامه وتفكيره ،  
ولعل كان ذلك حصيلة بسمات شكرية وانبساطها ومرحها مع الشاب  
العاطفي الذي يدرس القانون .

كانت تزور الحجية فتتعد ( تخته ) من تختات المطبخ الواطئة  
التي لا ترتفع عن الارض أكثر من شبر ، فتصالب ساقها لتفسح في  
حضانها مجالا كالمهد تضع فيه الرضیعة التي ترسل انينا وشخيرا لا  
ينقطعان . كانت الطفلة مولعة بالرضاعة وكأنها تلهو بالثدي أكثر  
من مص حليبه ، فتخرجه لها الام من شق قميصها قويا ناهدا مرتفع  
الحلمة ، فتنقض عليه الرضیعة بغم شره يابس ، ان منظرها لا يعدو  
ان يكون منظر جرو صغير أو فرخ قطّة بائس جائع .

كانت زياراتها لا تنقطع ، فهي خارجة من البيت او داخله اليه ،  
ولا يكف لسانها عن الشكوى من بطالة زوجها المزمنة ، وتتلطف  
باسماء الوزارات والشركات والمكاتب التي يراجع اليها زوجها لفظا  
مغلوطا ناقضا يثير ضحك جابر وسخريته . ورغم ذلك فلم يتكشف  
منظرها عن شظف العيش ، بل أنها لتتظاهر ببسطة الحال ، فتتزوج  
في غالب الاحيان وتصطنع العطور والادهان وتغدو الى السينما في  
مناسبات الاعياد وتذهب لزيارة صديقاتها وتتحدث في تعال ولها  
نفس طويل في النقاش والملاحاة .

ولقد اعترف جابر لنفسه من دونما موارد أو مداورة أنه قد  
أحبها ، وامسى مشدودا الى المنزل طمعا في لقائها والتحدث اليها ،  
الا انها اعتادت ان تسمعه « انا لست من اولئك » كلما خاض معها  
حديثا وعاج الى اطراء حسناتها أو هم بلمس ذراعها وشعرها . كانت  
تجفل وتزوي ما بين حاجبيها بنظرة ثابتة صارمة ويرتسم في عينيها  
عناد صلب مكابر وتقول « انا لست من اولئك » وقد بقيت هذه  
العبارة غير مفسرة في معجم شكرية .

تحدثت ذات يوم الى الحجية فيما هي تبتها بلواها ومصائبها .  
تحدثت عن اضطرارها منذ حين الى بيع كافة مصوغاتها وحتى ساعتها

لتغطية نفقات العائلة ، وانها كفت عن تجهيز نفسها بالفساتين الجديدة ، وانها صارت تعاني كثيرا من قسوة الحياة ، وانها لم تعد بصحة عامرة ، وان ثمة الاما ههنا وهناك صارت تعروها بغير انقطاع ، وليس في بيتها شيء يمكن لزوجته مضى على زواجهما عام ونصف عام ان تنباهي به وحتى (كنتورها) غدا عرضة لمساومة الدائنين . واختتمت شكواها بحسرة طويلة مشبعة الما « انا زوجة تعسة لم اوفق في زواجي » .

والحقيقة كانت شكرية وابنتها عاطلتين من الذهب ، فلا يزين معصميهما وعنقيهما واصابعهما شيء من الاصفر اللامع الذي يخلب بريقه النساء ، كما ان شحوبها وهزالها يبدوان طارئين ومفسدين ومهدمين لجسد كان جميلا مليئا منذ فترة يسيرة من الزمن . كانت تمتنع عن ارتقاء السلم والصعود الى الطابق الثاني مهما كلف الامر لعلها ان الحجية تؤجر الغرفة العليا للعزاب ، فميدانها الفسيح هو الطابق الاول تجول وتصول في غرفة وايوانه ومطبخه . يستلقى جابر على سريريه ينصت باهتمام الى حديث المرأتين محاولا التقاط المزيد من اخبار هذه الزوجة المنكودة التي صار ينتابها سعال كالهيممة وتشكو الحمى . كان يتمنى لو يتيسر له اقناعها بالصعود اليه والجلوس الى جانبه على القنفة الكبيرة المحتلة نصف غرفته ، ولكم كان يسره ويوقع الابتهاج في نفسه لو تكرمت وعبثت باثاث غرفته ، أو اوقدت له طباخ الطعام ووضعت فوقه قوري الشاي حتى يفور فتصبه له ويشربان سوية ، انه سيكون انذاك حرا فسي مخاطبتها وسيصطنع معها الرقة والوداعة في منجى من عيني الحجية الشاقبتين ، انها ستكون قميئة بترديد عبارتها « انا لست من اولئك » مئات المرات حتى يتعب لسانها ويصيب رأسها الدوار . الا ان ذلك كان امرا عسيرا ، حتى انها تمتنع على نشر الغسيل لصديقتها الحجية فوق السطح ، فكان هذا السلم في اعتبارها مفازة موحشة تنتهي بها الى شر مستطير .

كانت رغبة غامضة تدور في نفس جابر ، شيء كالدوامه العنيفة يهزه ويلويه ويشوش صفاء ذهنه ، وقد وضع خططا مختلفة ليحمل شكرية على الصعود اليه ، وارصد لهذه الغاية بعض النفقات ،

ففاجأها ذات يوم باعتزاه تقديم هدية لطفلتها شادية فسألتها باستغراب وعلى شفيتها ابتسامة ودیعة محببة .  
- أي نوع من الهدية ؟

تظاهر جابر بالتفكير فی انواع الهدایا التي يمكن تقديمها للأطفال . الا ان الهدية كانت مقررة سلفا ، فقال لها فی سرعة وخجل « سوار من ذهب بقدر معصمها الصغير لن یزید وزنه عن مثقال واحد » واستطرد مداعبا الطفلة « لكم احب طفلتك هذه » فمال اليها وانتزع طفلتها من بین ذراعیها وانشأ یلاعبها ويهزها ويربت علی خديها ويفرك شفيتها ، فهشت الطفلة وغرغرت فرحة ، فاعادها الى أمها . سألت شكرية بحزم « متى يكون ذلك ؟ يجب أن یصدق وعذك » لم یبال جابر بشكوكها بل سألها فی رفق « این ستستلمين السوار فی هذا الطابق أم تصعدين الى فوق ؟ » فأجفلت فی انكار « هذا مستحيل انا لست من اولئك . اصعد السلم وادخل غرفة أعزب » فأوضح لها جابر فی شبه توسل واستعطاف « ولكن یشكرية يجب أن تتقی فانا لا أنوي بك شرا » قالت « تستطيع أن تسلمني السوار فی هذا الطابق . علام ارتقاء السلم ، وانا مریضة معتلة الهث من تعب طفیف » .

أسمعني يا شكرية - قال « حالما اجلب لشادية السوار من الصائغ ، اضعه فوق منضدتي فتأتين أنت وتوقدين الطباخ وتضعين علیه قوري الشاي حتی یفور فتصبیه لی فنشرب سوية . أننا نفعل ذلك فی بيتنا فی الناصرية ، فأقعد مع امي وشقیقاتی وبنات عمی ، فلا تعدو ان تكون جلسة عائلية أو اخوية » فاستوضحت شكرية « هل اثق ان هذا كل ما تريده » وعقبت محذرة برأسها وعينيها « انا لست من اولئك » فطمأنها جابر ما وسعه الاطمئنان حتی اقسم فی اخلاص « بحياة والدي » فأجابت شكرية « صدقتك » .

أخذ جابر منذ ذلك الحین یهیئ لمن السوار ، كان وزنه مثقالا كما وعد شكرية وثمن هذا المئقال یزید قليلا عن الدينسارين مع نصف دينار أجرة صياغة السوار . ورغم ان هذه النفقات ستزلزل ميزانيتها لعدة اشهر ، وقد تحرمة من بعض وجبات الطعام والجلوس فی المقهى والذهاب الى السينما ، الا ان ذلك كان مستساغا ومستحبا اذا ما حظی بقاء شكرية وجلس اليها ساعة من الزمن .

فى أول الشهر تسلم راتبه من أهله ، فشخص لاحد الصاغة فدفع له دينارا واحدا على ان يجهز السوار خلال اسبوع لا يعدو الخميس القادم ، يوم انصراف الحجة الى بيت ابننتها ، غير ان شكرية صارت تتخلف عن زيارة الحجة متعلقة بالمرض وانحراف المزاج . وفى مساء الاربعاء التقى بها . كانت تبدو منهوكة متعبة تتحدث بصوت مخفوض ابج وفى وجنتيها احمرار غير طبيعى ثم ما لبثت ان تشكت الحمى . فبشرها جابر بان السوار سيتم صنعه فى الغد ، فتبسمت شكرية . قال « سأنظرك حتى الساعة الثالثة بعد الظهر » فاجابت شكرية « اما انا فساذهب صباح الغد الى المستشفى لتسلم فحص الاشعة وسأعود عند الظهر ، فأوصيك ان تدع الباب مفتوحا كيلا اطرقه فيلمحنى أحد الناس وتكون فضيحة . عليك ان تهيبى الشاي اليابس والسكر والنفط » ورفعت فى وجهه اصبعها مهددة « اياك ان تنسى شيئا فستكون رب بيت فاشل » فسألها جابر وقد بدا عليه القلق من أجل صحتها « هل انت مريضة الى هذا الحد ؟ »

نكست شكرية رأسها وقالت فى وهن « بكل تأكيد لست انا على مايرام ، وقد نصحونى ان أفحص صدري بالاشعة . وقد فعلت ذلك ، وغدا أتسلم الفحص » فطمأنها جابر بحماس كبير « شكرية لا تقلقى ، ان احتجت الى علاج سأدفع فى سبيل صحتك الغالية كل ما املك وسوف اصطحبك الى الطبيب » فشكرته شكرية وانصرفت .

كان الفرح يغمر قلب الزوجة الشابة المريضة والشباب الجامعى المتوحد فى المدينة . ابتاع جابر الشاي اليابس والسكر والنفط وعلبة ثقاب ، وراح يتخيل كيف ستنهمك شكرية فى العمل وما يترتب عليه ان يفعل خلال ذلك وبأى حديث سيملا فراغ الوقت ، وراوده شعور اخر هو ان يستوهبها قبلة . انها لن ترفض من غير ريب . أما هى فكانت فرحتها أن تسلم السوار وتزين به معصم ابننتها ، وقد فكرت مليا فى نوايا جابر ، انه لم يتبد لها مكرامخادعا يستدرجها الى شرك بل لطيفا مؤدبا كثير التحنان عليها ، وان شبابا صغارا لن يطمعوا أكثر من اختلاس قبلة واحدة فيفرحوا بها ويكتفوا وستعرف كيف تمنعه وتصدنه عنها وتظاهرا بالانزعاج . انه اسلوب

كل امرأة حسنة الظن بالرجل قبل ان تحبه .

فى صباح الخميس انطلق الى الكلية فحضر محاضرتين فقط ثم عرج على الصائغ فتسلّم السوار . كان بديعا متوهجا بلمعان أصفر يخطف الابصار . راح يتأمله جابر باعجاب ، فخطر له خاطر سخيف وتساءل هل هو هذا الذى يحى عليه فى نار جهنم فتكوى به الجباه والجنوب والظهور . وابتسم حال ان خطرت له الطفلة شادية . هل ستكون هى ايضا من خازنات الذهب يلقي بها فى نار جهنم ويكوي جبينها بالسوار . فكر ان يروي هذا الخاطر لشكرية فيجعلها تفرح وتبتهج .

فى الساعة الثانية كان فى المنزل ، لقى الحجية تتأهب للانصراف ، قد تأبطت حزمة ملابس عتيقة وارتدت فستانا ملونا بالازهار وعصبت رأسها بمنديل . واخيرا سمع جابر اصطفاق الباب يغلق من ورائها ، فنهض فى الحال وهبط السلم واعاد فتح الباب ثم عاد الى غرفته واستلقى على السرير منصتا لاية حركة تقع فى الطابق الاسفل . مضت نحو نصف ساعة فأمضه الانتظار ، فتشاغل بترتيب اشياء الغرفة ، فافرغ الشاي اليابس فى علبة من التناك وسكب النفط فى الطباخ ليوفر على شكرية بعض الجهد ، بل ذهب الى اكثر من ذلك ، فتح علبة الكبريت نصف فتحة من الجانب الذى تبدو فيه رؤوس العيدان ، حتى اطمأن الى ان كل شىء قد نال حقه ومكانه عاد وهبط السلم وترجع فوق البساط كما تفعل الحجية معتزما ان يستقبل شكرية عند الباب فيتأبط ذراعها ويصعدان السلم سويا ، واخيرا بان ذيل عباءتها فى فرجة الباب واطلت برأسها وقالت لتعلل تأخرها «حتى الساعة الواحدة وانا أنتظر فى المستشفى، لكم يتفنونون فى تعذيب الناس ، كاد يغمى علي من فرط الحنق وزحمة الناس » حنق اليها جابر بأمعان فهاله شحوبها وانخساف خديها . فسعلت وجففت شفثيها بمنديل صغير فانقبضت سحنة جابر .

سأله عن السوار ، فأشار جابر الى السلم فتأبطها فاستسلمت لذراعه استسلام مريض منهوك يحمل الى عيادة طبيب . سأله «هل تقرأ الفحص ؟ لم يقرأه لى أحد فقد اختطفته من يد الموظف لكيما اجعلك تنتظر طويلا » فاخرجت من جيب فستانها ورقة مطوية ناولته

اياها قائلة « هيا اقرأ » .

كانا قد بلغا منتصف السلم ، فوقف كلاهما . كانت قد احكمت مسك طفلتها بذراع واحدة واستندت بالآخرى الى كتف جابر . سألتها قبل أن يفض الورقة « أي شيء ستعطينني مقابل ان اقرأ لك ؟ أدركت انه يطلب قبلة على السلم ولكن كيف تسمح بالتصاق شفتيه على شفتيها . انها في هذه الايام مريضة ولم تفعل ذلك مع ابنتها التي يدفعها الحنان كل لحظة الى تقبيلها . نكست رأسها وقالت في اباء « كلا لن اسمح لك » فمال الى ذقنها وجذبه اليه فلاح في عينيها الخوف والفرع . صاحبت به محذرة « كلا لا تفعل قد اكون مريضة » فادنى شفتيه الى شفتيها فاندفع من فمها زفير ساخن لفح وجهه وعنقه ، فتنتم « لشد ما هي حارة انفاسك » ففسرت شكرية ذلك « أنا محسومة » .

كان الفحص مكتوبا باللغة الانكليزية ، وبمجرد أن حزر جابر معاني ثلاث كلمات فهم المضمون « سل ، رثة ، إصابة خطيرة » . فاسترخت ذراعه وتلعثم وهبط السلم ورفع اليها نظاره فيما كانت تحدق اليه في انشداه .

— أي شيء كتب فيها ؟ لقد أخفنتني .  
غمغم جابر .

— لا شيء انت تعب يا شكرية . الافضل ان تهبطي السلم واجلب لك السوار بنفسى .

هبط السلم حتى توسط ساحة البيت وهبطت هي في خطوات ثقيلة ، وقد عقد الفرع لسانها ، فهدأ جابر من روعها « سأناولك السوار في الحال » ودلف الى السلم بخفة القط وبرز لها بعد لحظة عند الحاجز . كان قد اخرج منديله وراح يدعك به شفتيه في قوة . صاح من العلوية « شكرية خذي السوار ووداعا » فألقى به على الارض فاصطدم بها في رنة عالية وتدحرج نحو مترين حتى استقر عند قدميها ، فانحنى والتقطته ، واذا ما استقامت ثانية رفعت الى جابر عينين مخضلتين بالدمع . كانت أشبه بالتائبات النادمات اللواتي بركن تحت الايقونات في الكنيسة . قالت في نشيج حزين « تذكر يا جابر انني مانعت في القبلة » وخرجت الى الطريق دامعة العينين لا تلوي على شيء .

## رجل من الصرائف

كان الرجل الضئيل يقف على مفترق الطريق الضيق الموحد والمفروش بشتى القاذورات المتعفنة ، قد وضع قدميه الصغيرتين والمحتدتين حذاء رقيقا باليا فوق قضيب السكة الفولاذي المتين ، وطلق ينظر حواليه بسأم وتعب ونفاذ صبر ، كأنه يترقب خبيرا هاما محزنا لا يدري من سيأتيه به ، وعلى أي وجه من الفضاء سيكون . لطخات من السحب تنتشر فوق رأسه ، مصطبغة بلون رمادي أدكن ضارب للسواد ، وبقع السماء الصافية راحت تضيق من فرجاتها مقضية على آخر أمل للناس بالصحو والاشراق .

السماء نفسها لم تتغير ، سيرفع الناس اليها أبصارهم من كل مكان ، من العمارات الشاهقة ومن أبراج موظفي الانواء ومن ثكنات الجند وقلاع الطغاة ، ومن هنا أيضا ، من هذا الدرب العفن الذي يشير الغشيان بقذارته وحقارته .

وقف الرجل الضئيل صامت اخرس ، يستدل من اختلاجات شفثيه ولعان عينيه الضيقتين وتنفسه بغير انتظام ، انه مشتبك مع نفسه في هم معذب وقلق مضطرب يقبض على صدره بقوة ، تحت أبطه خشبتان صغيرتان ملفوفة عليهما خرقتان حمراء وخضراء ، لا يخطي الناظر اليه انه احد عمال السكة يلاحظ مرور القطارات ليزودها بالاشارات اللازمة ويزيح الاطفال عن السكة كلما هم قطار بولوج المحطة . في موضع ما كانت السكة ممدودة فوق حفرة كبيرة ، والقضيبان المتينان مركزين لمسافة على دعامتين كونكريتيتين ضخمتين . انتهز الاطفال هذه السانحة فراحوا يتقلبون فوق السكة ويتأرجحون عليها ويتفافزون على خشباتها القوية العريضة والرجل صامت حزين قد أعياء النهر والتحذير طيلة نهاره ، فلم يفتأ ينادي « أيها الاطفال احذروا القطار وابتعدوا عنه ، قد يخرج عليكم في أية لحظة فيجعلكم عجينة من الدم والعظم » على الاطفال جلابيب فقط ، فكلما تأرجحوا ورفعوا سيقانهم انحسرت الجلابيب الى بطونهم وتكشفت أجسادهم النحيلة الطاوية المصبغة بلون السلق .

على جانب الرجل أربعة ترايبت ملقاة فوق الوحل ، اثنان جديدان ، وآخران قديمان مهشمان مصنوعة جميعا من خشب الجام

حتى هذه الاشياء المحزنة المثيرة لم تنج من عبث الصبيان ، كان بعضهم يشب عليها أو يتربع بداخلها مؤرجحا جذعه أو ممددا على قاعدتهما مسبلا يديه متصنعا هيئة الموتى ، الرجل الضئيل مرابط على مقربة من التوابيت من صباحه الى مساءه وقد شهد اكثر من مرة ان بعض الناس يقبلون مولودين وعلى وجوههم آيات الاسى واللوعة يتمتمون بكلام مهموس كأنه الدعاء ، فيختطفون تابوتا ويذهبون به . يختارون دائما تابوتا جديدا قويا ، فيغيب هذا التابوت العزيز عن مكانه بضع ساعات ثم يعيدونه الى مكانه فوق الوحل وعليه نتف صغيرة من القطن .

أقبل القطار يزعق برعب ، يخترق دربا مطينا ، على جانبيه بيوت متأصصة واطنة قد لطح الوحل أبوابها المقرقة ونوافذها الصغيرة المزججة بقليل من الزجاج الداخن الاغبر وفي المواضع الخالية من الزجاج برزت الوسائد والخرق والمقوى . راح القططار يتلوى عدة ثوان في حركة حلزونية وصغيره الهادر يرتطم بجدران البيوت فيهزها كما لو ان الارض تندك من تحتها .

نوبة من التفكير العميق قد غمرت الرجل ، وكأبة فاضحة علقت في ثنيات وجهه ، ونظرة سادرة مضطربة تنطلق من عينيه الى مكان ناء لا حدود له .

صحا على صغير القطار فطرد هواجسه في الحال مرجفا رأسه الصغير هابا على خرافته الخضراء متعجلا في نشرها امام القططار المتقدم وأصر صبي شرير أن يظل متأرجحا بالسكة ، فصاح به بصوت مختنق واطيء مقعم بتحذير متوسل « هيا ابتعد سيدوسك القططار » كانت صيحته تعب موهنة حتى انها لم تخف الصبي ولم ترهيه ، بل مدته بفيض جديد من الشجاعة العابثة . كان القططار قد أطل من عطفة الطريق يتأود الى اليمين والى اليسار ، فظل الرجل يغغم في قلق ، ناقلا نظراته بين الصبي المتأرجح والقططار الزاحف المجتاح « ابتعد من السكة ستموت » كان الآخرون يهزأون ايضا تحلقوا حول رفيقهم مصفقين منشددين ، فمضى القططار شامخا بمدخته العالية نائرا دخانه المتفحم هادرا بصغير مرعب .

شرعت قطرات من المطر تنقر وجه الارض الندية ، وزارت

الرياح عاوية مزمجرة فقرقت مصاريع الابواب والنوافذ وشيئا بعد شيء تكاثفت حبات المطر كما لو أن خزانا هائلا للمياه استتحات جدرانها الى غربال . للمرجل معطفه وشده قويا حول بدنه المرتجف مجيلا بعينه في كل مكان ، متلمسا لنفسه سقفا يلوذ به كمن وقع في شرك . شخصت ابصاره الى الصرائف النائية حيث تنسدل على طول الفضاء وعرضه ستارة رمادية متذبذبة تنسجها قطرات المطر المنهمرة .

كانت الصرائف الحزينة المطاطاة السقوف راکعة في خضوع تتلقى المطر من غير حول ولا قوة وتبتلع بعضه في جوفها وترسل البعض الآخر متحدرا الى الحفر الاسنة . كانت صريفته قائمة بين تلك الصرائف وليس ثمة انسان يستطيع تمييزها عن الاخريات ، ففي ذات يوم قدم جمهور من المتشردين الى هذا المكان فأوتدوا أحسابهم ونشروا فوقها الحصران البالية ، واقاموا تحتها كالبهائم المطرودة المهانة . لم تكن صريفته في متناول بصره ، وهذا ما أكربه وأزعجه . بالامس كانت زوجته مريضة قد انتابتها حمى مروعة ، وعند منتصف الليل اعتدل مزاجها قليلا وفتحت عينيها وشرعت تصغي في ذهول الى اخباره واحاديثه . كان يشاع بين سكان الصرائف ان الحكومة قد اذمت انشاء مساكن لهم ، وذكر ان نحو ٣١ الف انسان يعيشون على شاكلتهم ، وان الدور ستشتمل على غرفتين وحمام وستكون مشيدة بالاسمنت والاجر . وسيكون لهم مستوصف يراجعه طبيب كل يوم ، يعاينهم ويصرف لهم الدواء ، كما ان مدرسة للفتيان ستشيد ايضا ، تضم اطفال الصرائف المشردين . ان حياة جديدة زاهية ستشيع انوارها . التمع في عينيها سرور باهت لدى هذه الاحلام ، سرور مشوب بالكدر والضيق .

هل انها ستعيش الى ذلك اليوم ؟ كانت تستجلي هذا السؤال في ذهنها . هل ستمتد بها ايام العمر فتري كل هذا . ان احاديث كثيرة تدور على السنة الناس تبشر بعهد جديد . ولكن داء عضالا ما برح ينخر في ضلوعها كالسوس .

ياالهي كيف سيكون حالها ؟ تنهد الرجل في ألم مستكين الى قذائف المطر الهائلة متقبلا كل معننه في استسلام ويأس . . . تمت

« ليأت المطر ويفرقني في بحره اللجى وعساه أن يكتفى بي .. ولا تنزل سيوله في تلك الصريفة المحتجة فتزهز جوانبها وتصدع سقفها وتبلل المرأة المريضة المستلقية في حنايا فراشها » .

كانت تبترسم ليلة امس أبتسامة محسورة وتنتطح الى جوانب الصريفة بعينين حزينتين وديعتين . كان المصباح الكدر يساقط شعاعه على وجهها فتتنهد وتمسّد عنقها بأصابع مرتعشة منحولة ، والرجل نصف النائم المنكمش المضعضع بالسهر ظل يغمغم عند فراشها بكلام كثير لا معنى له .

لم يأت انسان قط لاختطاف اى من التواييت . ظلت متراكمة في مكانها تتلقى سيول المطر بنخبها الندى ومساميرها الصدئة قد تصلبت بداخلها تتف القطن بفعل البلبل فعدت ككرات الحالوب البيض .

ثمة قطار آخر سيخرج من المحطة . آفاق من تأملاته كمن تلقى صفعه على نقرته . كان المطر قد اخترق معطفه العسكرى ونفذ الى سترته وقميصه وغسل وجهه وسال عليه الماء ، واحس ان تحت قدميه ينبوعا يتدفق بغزارة . تمتم الرجل « ان حالي لتشبه حال الكلاب .. ان الكلاب نفسها لم تعد تترأى وسط ذلك الهيجان المطري الدافق » .

كان أحد جيرانه يتقدم نحوه من مكان بعيد ، غاطسا بقدميه في الاوحال دافعا ببذنه تحت وابل المطر ، متملسا طريقه الوعر بين الحفر والانلام .

لم يتبين ملامح جاره ، كان المطر يغمره تماما ، الا ان سرعة سيره توحي بشر مستطير . القى نظرة جانبية الى التواييت فسرت في بذنه رعدة ، ولسبب ما بدت له هذه الاختساب مرعبة كالة الاعدام .

تقدم الجار لاهثا متداعيا ، وأسماله العفنة تقطر ماء كثيفا لزجا صاح « عاصى عاصى هيا عجل كلثومة تلفانة » كان عاصى قد نشر خرخته الخضراء وطفق يلوح بها بيده المبلولة وانطباعة قاسية من الاسى علقبت بمحياء بأسره . لم يجد أيا من الاطفال . كان المطر قد جرهم الى منازلهم . ارتجت الارض المنقوعة ونفخت الماكنة باحتدام

وانطلق الزفير الاسود المشبع بماء المطر يدوب فى الفضاء •  
شق طريقه الى صريفته وسط الاحوال • وجهه كامد متقلص  
وعيناه واسعتان حزيتان ، فمرت بخاطره أحاديث الليلة السابقة عن  
بناء الدور الاجرية والغرفتين والحمام والمستوصف والطبيب  
والمدرسة • استجلى جاره بفتة •  
- « كيف حالها ؟ هل انتهى الامر ؟ » أطبق الجار شفثيه وقطب  
وجهه •

كان لاقدامهما الثقيلة على الاحوال صدى موحش عميق ،  
يتمزج مع رنين المطر المتساقط على البرك الكبيرة فيرقش سطوحها  
« ايه كلثومة • • فقدتها » كان يغمغم بهذه الكلمات لنفسه  
ليس غير • اذ لم يجد اى منهما متسعا لمزيد من الكلام •  
وفي ظلمة الصريفة الدامسة المغرقة بالعتمة الكثيبة والطافحة  
بكل شيء حزين ، لقي زوجته مسجاة في روعة وجلال • قد أغلقت  
عينيهما باباء كأنما تبدي رفضها لاستلام شيء ما ، مستسلمة الى حلم  
جميل شههي • مكث الى جوارها مرسلًا زفراته في مرارة ، مطلقا  
لدموعه العنان ، ضاربا على اضلاع صدره بقوة ، ومن خلال الغشاء  
البراق المضرب بدموع عينيه لمح تابوتا جديدا يدخل الصريفة ،  
فأنتفض بدنه وغرق قلبه في بحر جليدى • كان المطر يقطر من  
التابوت • ولم تكن لعاصي حاجة كبيرة للتمعن في شكله فطالما وجده  
ملقى على الوحل يقفز فوقه الاطفال •

## في سبيل الافق

قبل نحو عام انتهت محكومية صديقنا حسن . كان قد امضى في السجن اربع سنين بسبب من ارتكابه جريمة قتل ، واطن ان الدخول في تفاصيل الحادث ليس مما يسر ، فقد كان أشبه بظاهرة في غاية الغرابة والشذوذ اذ لم يكن يأمل اى منا ان يقدم رجل مثله اكتسب هذا القدر من الخلق الرفيع والطيبة المتناهية والعلم الغزير على قتل امرأة من قريباته اتهمت بسوء السلوك ، غير ان الحادث قد وقع وسجن حسن وهذا كل شيء .

في الليلة الاولى من اعتقاله أقمنا نحن أصدقاءه المقربين حفلة مخمورة ابتهاجا بالمناسبة ، فتحولنا حوله في حانة فاخرة نتفرسه بعيون مستطلعة . كان هو قد استند الى الجدار وتركنا نحن الاربعة نواجهه من كل اطرافه ، وعبثا حاولنا اكتشاف تغيير في سحنته . كان مثله قبل اربع سنوات . عيناان خضراوان راعشتان تخبوان وتلتمعان باستمرار تحوط بهما أجفان مجمدة كثيرا كأجفان العجائز ومحيا قفقاسي أصفر تعلوه وجنتان من صميم بلاد الصين قال .

— أمضيت في السجن اربع سنين، وقد اجريت لي في مستشفى السجن عملية استئصال الكلية ، ولقيت ما لا يقل عن عشرة آلاف سجين، وشهدت مرتين عملية اعدام . كان السجن يضطرب في هذه المناسبات وتتضاعف الحراسة وتلغى رخص السجنانيين وينسب أحدنا لترتيل القرآن عند رأس الحكوم طيلة الليل ، ولكم تمنيت أن يقع على الاختيار غير اني لم اوفق . كان سواي يتقدمنى في كل مرة، وجربت ان اتعلم حرفة كالحلاقة وصناعة الاحذية فلم اوفق ايضا . ان تعلم حرفة في السجن أمر صعب ، فالاسطوانات يبخلون بعلمهم خشية المنافسة وضياح الامتياز .

وهكذا جرى الحديث الممتع زهاء ثلاث ساعات حتى شارفنا على الحادية عشرة ، ولا يكاد ضيفنا يفرغ من جواب حتى يسد اليه أحدنا سؤالا آخر حتى سألناه في آخر الامر .

— وانت اى شيء كان يضايك في السجن ؟

تنهد الرجل واختلجت اجفانه وتعاطمت رعشات عينيه قال  
بجرس شاك

— جدران السجن لشدة ما ضايقتني وأكربتني ، انى وجهت  
باصرتى صدمنى جدار صامت اخرس كجدار الموت الذى يصف اليه  
المحكومون بالاعدام قبل اطلاق الرصاص عليهم • تصوروا اربع  
سنين أو عشرا أو عشرين لا تقع عيننا انسان على شىء يبعد خمسين  
ياردة • كل مرثياتى كانت فى هذه الحدود الضيقة •• اواه اواه  
الفضاء هو ضالة السجن التى يتحسر عليها •

ثم استرسل بنغمة امعن بالشكوى واحفل بالتفجع •  
— « ترى لو اخرجونا يوما فى الاسبوع تجوب فى البرارى ونرتاد  
ضفاف النهر ونستجلي الافق لكم سيكون السجن مستساغا هينا ،  
ان النفس لتنتعش وتسر •• ولكن الجدران الاربعة هـى ناموس  
السجن الازلى بل هى الكرب العظيم الذى ينشق السجن من ثقله  
الى نصفين » قلت •

— « اذن أنت فى لهفة للتنقيب عن ضالتك الثمينة ؟ ها اتنذا  
قد نلت الحرية التى حرمت منها كل هذا الزمن الطويل وخرجت  
الى الدنيا الفسيحة ودانت لك البرارى والصفاف والافاق » فهتف  
فسى مسرّح •

— « هذا ما اريده يا صديقي سأنطلق حيث لا يصدمنى جدار  
ولا يعوقنى حارس ولا بوابة من حديد ، الفضاء كله لي انعم به  
ما شئت » قلت •

— هذا عظيم بيد أنك ستضجر من غير ريب بلا رفيق ولا مونس •  
وكننت فى قرارة نفسى اتوق لمصاحبة هذا الرجل القفقاسى  
المحيا ذي العينين الخضراوين • وقد طرّف بعينه غامزا فيما هو  
يلقي التماسسه •

— هل تفضل وتكون معي ؟ يوما هنا ويوما هناك ، لا ندع  
أرضا تعتب علينا ولا أفقا ولا ضفة بل سياحة شاملة فى طول المدينة  
وعرضها • فوعده أن أكون معه منذ الغد • وقد بررت بوعدي ، اذ  
أفتتحننا اولى جولتنا فى اليوم التالى • عقدنا العزم على القيام برحلة  
تبدأ من محطة الكاظمية حتى كراة مريم على ان نسلك رصيف النهر •  
التقينا فى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ، كان الجو رائقاً  
والسما متألّفة تحت شمس ساطعة فى غاية البهاء ، والنسيم هفافا

يُسمح على وجهينا فى رفق • كان يوما ربيعيا حقا من الايام التى  
يكثُر حولها الوصف الخلاب •

سرنا نحو ثلاثة أميال فى اتجاه سكة الحديد فوق أرض فسيحة  
تبشرت عليها ابراج معامل الطابوق وأبنية صغيرة متباعدة واكواخ  
داخنة ، ثم أنعطفتنا صوب رصيف النهر مستعرضين الماء والشجر  
وقوارب الصيد وعمال السفن المنهمكين فى تشييد هيكل سفينة  
حديثة، ولا نفتأ نرنو الى الضفة البعيدة محاولين تعيين الاماكن هناك •  
كان الطريق يتمهد تارة ويتوعر اخرى حتى بلغنا مبنى كبيرا  
شامخا قلت لصاحبي •

— هذا زورق عمومي ينقلنا الى الضفة الاخرى •

فاتحج قائلا •

— ليس فى هذا الجانب ما يمتع النظر ، لتتوغل الى مسافة  
اخرى حتى نبليغ موقع استدارة النهر •

فأذعنت لمشيئته وتابعا السير بشراخ ونصب ، فاتسع أمامنا  
تيار النهر وانبسطلت صفحة الماء تتألق تحت حواجب الشمس التى  
أخذت تظفل منذ فترة يسيرة ، وقد امتد أمامنا الافق حيث تتدلى  
السماء وتشرأب اعناق التلال ويمتزج اللون الازرق باللون الرمادي  
هتف حسنا •

— ها هنا الافق ما أروع •

وجعل يتأمله فى كثير من المرح والغبطة فقدرت ساعتئذ معنى  
الحرية ومعنى النضال لاجلها ، وأصر صاحبي على عبور النهر فى  
اعرض موقع • لم يكن هناك زورق للاجرة انما كان زورق واحد  
يتخذ صاحبه فى صيد السمك ، وهو قديم مرقع دانية حوافيه نحو  
الماء • فرجونا الصياد ان ينقلنا الى الضفة الاخرى فأجاب طلبنا بعد  
تلكوة ملمحنا لنا ان زورقه لا يليق بنا وليس هو مضمونا فلم يبال  
صاحبي • كان مأخوذا بروعة الافق الذى سحره وخلق لبه ، فركبنا  
الزورق فتمايل هنيهة ، ثم استقام مدفوعا بقوة المجذافين واذ ما  
بلغ بنا منتصف النهر برز لنا مركب بخارى من تلك المراكب الباذخة  
التي يتخذها الاغنياء للنزهة واقامة المادب • برز مثل نمر مستوحش  
يرسل زئيرا وعريدة ، فخطر لي فى الحال ان اخلع حدائى ، وهى

عادة حميدة عند دنو خطر الغرق • اقبلت نحونا موجة قوية لطمت الزورق في جانبه فتارجح لحظة يسيرة ثم اقبلت موجة اخرى رفعتنه كالغنجان بين اصابع اليد ونفذت الى جوفه دفقة كبيرة من الماء فانشأ الصياد يزمر ويرسل الشتائم ثم كانت موجة ثالثة قلبت الزورق والقتنا في النهر ، فطفت فوق الموج لحظة ثم غطست وارتفعت كرة اخرى وقد أيقنت من هلاكي •

كانت اصوات ثاقبة تنتاهي الى اذني أشبه بزعيق حاد ترسله حناجر النسوة المفجوعات اللواتي يودعن ميتهن الوداع الاخير ، واحسست ان يدا فولاذية بالغة القوة تشدني من شعري واننسى أطفو وأتنفس هواء رطباً ، واذا ما صحوت بعد حين وجدت نفسي ملقى على رصيف النهر وحوالى خلق كثير يتأملونني بأشفاق ، بادرت بالسؤال عن حسن فأشار رجل الى النهر وقال •

— انهم هناك مازالوا يفتشون في غير جدوى •

وبعد يومين اخرجوا حسن من النهر ميتاً •

كانت عيناء مغمضتين بشدة ولاشك انهما تحتفظان باخر رؤية لللافق الوردي الذي صبغه المغيب بالقرمز •

## رجل مضطهد

فى المساء بارح السيد حقي مأمور الاستهلاك منزل مدير الناحية وهو على غير مزاجه ، فمند أيام ثلاثة صارت الحمى تنتابه ويشغل الصداع رأسه فيأوى الى فراشه مع الغروب .

واذا ما كان على الطريق المغبر المحفور طالعته مساكن الاهلين المشيدة بالطين يتوسطها التنور الداخن والدجاج من حولها يتقافز وينبش فى التراب والكلاب الضخمة الكسولة تطرد عن وجهها الذباب وزمر من الفلاحين المرهقين يخترقون الازقة متنكبين محاربتهم ومعاولهم يلوح على وجوههم الكد والتعب . بينما انطلق مع حشود الظلال الكثيفة رجل يحمل سلما ونظا وحزمة خرق ليمسح فوانيس البلدة ويضيئها . كانت هذه الفوانيس مثبتة على جذوع الاشجار أو جدران البيوت المعوجة المائلة على مسافات متباعدة تتقارب اكثر فأكثر حول بيت المدير وبطانته من الموظفين .

كان القطار قد وصل وها هو صفيره يخلص الى الاذن من المحطة البعيدة وها هم المسافرون يركبون العربى المقرقعة الدواليب والحدوى الاعور يلوح بسوطه يستحث حصانيه الهزيلين فيستقبلها الاطفال فى سرور وغبطة وكأنها قادمة من مكان مجهول غريب ، اذ لم يقدر لمعظمهم ان يركب العربى ويسافر بالقطار .

زفر حقي فى ضجر .

« هذه اللوحة المسائية الكثيبة ايضا : فلاحون وعربة ومسافرون » لم يعبأ لا يما أمر ولم تكن ثمة حاجة ليسأل عن شىء ، فقد قيل له فى يومه الاول كل ما يلزم معرفته عن احوال الناحية وشؤونها واثريائها وفقرائها ، مصائبها واحزانها .

واذ ما جاز عشرات المساكن تبدت البساتين المسورة المحروسة تنعب فى جنباتها الغربان وتصدح البلابل وتزقزق العصفير وتنق الضفادح ، تتمد عن يمين وشمال الى عدة أميال مثقلة شجراتها بالبرتقال والليمون والرمان والكروم هى كنوز الناحية وثروتها ومصدر تجارتها ، وعند الساقية الوحيدة اجتمعت النسوة لغسل الصحون والنخرق بينما يغتسل الاطفال من حولهن ويسكبون المياه على اقدام الدواب المقبلة لتروى عطشها .

كان منزله يقع فى الطرف الآخر من البلدة وما ان بلغه السيد حقي بعد مسيرة عشر دقائق حتى خلع معطفه وسترته وسروراه واندس فى طيات الفراش لمقاومة البرودة الثلجة فى عظام ظهره وخاصرته ، وشرع يستذكر موضوع العريضة التى اثار المدير حولها النقاش .

فمنذ أيام نشرت احدى الصحف عريضة تقدم بها احد أبناء البلدة الى المسؤولين يبسط فيها تأخر الناس الصحى وندرة الادوية وانعدام أسباب الوقاية والتسيب الاداري وطالب فى آخر عريضته ان تنشأ فى البلدة دار لتصفية الماء ومولدة للكهرباء بدل الفوانيس الشاحبة التى تطفؤها الريح فى ساعات الليل فيسود الازقة الظلام ، وقد دهش حقي ان يكتب أحد أبناء البلدة مثل هذه العريضة ويتقدم بها الى المسؤولين دون ان يتهيب وبأخذ الوجل . وكان المدير مغضباً أشد الغضب وهو لا يكاد يمتلك أعصابه من فرط الغيظ . قال فى حدة وهو ينشر أمامه الصحيفة :

— انظروا أية وقاحة واقتراء ودميسة ، وكلكم تعلمون انسى أعمل المستحيل فى سبيل تحسين اوضاع الناحية وازدهارها ، أريدكم ان تكذبوا هذه الاتهامات وتنشروا الحقائق أمام الناس قبل ان يصدق المسؤولون وينزلوا بنا العقاب .

وانما أعاظ السيد حقي هو تكشف رئيس البلدية عن حقارة متأصلة ، وهو رجل نصف أمى ونصف متمدن متهوس مغرور ورث منصبه عن أبيه وجده .

كشر عن أسنانه وفح فى وسط المجلس « هدام من غير ريسب سابلغ عنه التحقيقات لينال عقابه » .

وقد لاحظ السيد حقي فى كثير من الوضوح ان المدير كان يحث موظفيه أن يكتبوا فى مدحه والثناء على ادارته الحكيمة وسعيه الدائم من أجل تجميل الناحية والترفيه عن الاهلين .

كان يتمنى ان يخوض معه نقاشاً رقيقاً هادئاً ولكن الحمى اقعدته ولجمت لسانه والصداع ضايقه وأتعبه ، ولذا فقد تسلل ميكرا مخلفاً المجلس منبرا للكتابة والمعلمين ليشيدوا بموقف المدير الحازم وأعماله الباهرة .

ان الدنيا تتقدم وترتقى وحتى في هذه الناحية المنعزلة الصغيرة الضاربة في مجاهل الامية والفقر ينهض من غبارها وطينها رجال صغار يكتبون ويطالبون ويكشفون الاقنعة ويقرعون ابواب المسؤولين الذين لاسمائهم وحدها تحنى الجباه ، وان رجلا كالدير لن يقوى على صد التيار ، فان الطوفان قمين بان يجرفه بعد حين ويلقى به في الهاوية - له عائلة كبيرة في بغداد تتكون من زوجة وثلاث فتيات في سن الزواج وابن صغير يتلقى علومه في المدرسة المتوسطة تركهم جميعا وجاء مكرها مفسورا الى هذه الناحية الحزينة المقبضة للروح من غير حول ولا حيلة . . ولكن ما الذي يمكن صنعه تجسسه الوساطة . زاحمه على منصبه في الوزارة شاب من أسرة ثرية رفيعة يدرس القانون وتعوزه وظيفة في مكان دراسته فاعتصبوا من السيد حقي مكتبته والقوا به بعيدا كالنواة التي لا تنفع . .

كل شهر يشد رحاله الى بغداد لرؤية عائلته وتدبير أمور معيشتهم . في الشهر الماضي وفي ذات صباح مطير بارد كان يتجول في السوق بحثا عن معطف مستعمل يدفي به عظامه ، وبينما كان في إحدى الدكاكين يجرب معطفا بين يدي البائع ، لاحظت في المرأة التي أمامه فتاة تجتاز السوق كثيرة الشبه بابنته سميرة ان لم تكن هي ذاتها ، وكان الى جانبها الشاب الذي اغتصب مكتبته في بغداد وهما مستغرقان في نجوة مربية ، فنزع المعطف عن كتفيه في الحال وهم باللاحاق بهما ، غير ان السوق كان مكتظا يكتنم النفس فلم يعثر لهما على أثر ولم يكن ثمة ما يؤكد انها كانت أبنته نفسها . ولكن هذا الخاطر المقلق لازمه أياما عدة واقض مضجعه ، اذ كيف يمكن ان تنشأ علاقة بين ابنته والرجل الذي جنى عليه كل هذه الجنايات ، انه بعيد عن العائلة وبغداد ليست بالمدينة المؤتمنة بعد ان شاع فيها العبث وغصت بطلاب اللهو والمجون .

في الصباح قام الى فطوره فتناول قليلا من الخبز المأدوم بالزبدة واحتسى كوبا كبيرا من الشاي . ثم اتخذ سبيله الى مكتبته . كان صباحا منورا بشعاع الشمس الدافئ يغمر المزارع الخضراء وقد انطلقت الابقار سارحة في المراعى ، والدواب تتمهل أمام محاريثها والدوارس تنز ، وترتفع المداوي بالأيدي ، والاهلون



فراح يعمل عمله الروتيني ، يستلم المرسوم ، ويوقع الوصولات ويحشو الدنانير في الخزانة والطنين الموشوش المتسائل الملحاح يثقب اذنيه .

كان يعمل بسرعة وخفة ليستنا من وحي القوة والنشاط بل في شيء من الترفزة والحنق والضجر وكأنه يقول في سره ، انه يومي الاخير معكم ، فلاصف كل شيء بضربة واحدة وانهي الحساب كيما استريح في آخر الامر .

وعند الظهر خف الزحام عن مكتبه فراجع أوراقه واحتسب مدخوله ونظم دفاتره وكتبه حتى شارف على نهاية الدوام فقفل راجعا الى بيته موطئا اطيان السوق وقاذوراته . ومع خروجه خرج الموظفون الآخرون من مكاتبهم . المدير اولا يحف به مكتبته والمتملقون من وجوه الناحية ثم معاون الشرطة يتأخر عنه قيد خطوتين شرطي باسل ضخيم ، وبرز موظفو النقوس والصحة والبريد والمعلمون وقد بدأوا جميعا للسيد حقي أصحاب موفوري العافية متوردي الوجوه فيما هو وحده يشكو الروماتيزم والبرد وسوء الهضم ، وهو وحده غائر الوجنتين متساقط الاسنان يعاني الحمى والصداع .

في المساء لم يغادر منزله ويشخص الى بيت مدير الناحية وفي هذا خرق للعادة ومن الامور التي يستلزم لها ايضاها وطلب المعذرة والا وضع نفسه موضع الملامة ، فاشباع غرور المدير والاشادة بفضله وحكمته وحصافته في المناسبات كافة من واجبات الموظفين العاملين في ناحيته .

تمدد في فراشه خائر القوى شاحب الوجه مبهور النفس . قد انفرطت شمعات رأسه وتهاوت على قذاله ، وقد اضاء له خادمه في أول المساء مصباحه النفطي القائم فوق المنضدة واتى له بكوب من الحليب الساخن مع رغيف من الخبز شرع يقضمه في غير اشتهاه ويحسّو الحليب على مهل .

انه قد بلغ عامه الخامس والخمسين وان كان في سجلات الدولة لما يزل في عامه الخمسين وان احواله على التقاعد باتت محتملة ، فلم يجزعه هذا الخاطر البتة ، لكم يود ان يمضى سنواته الاخيرة في دعة راحة ويعيش على هواء ، يضطجع في فراشه حتى الضحى ولا يغادر

بيته في الايام الباردة ويتحرر من قلقه من جراء مسؤوليات الوظيفة وابعائها فيفرغ همته في توجيه بناته وارشادهن فيختار لزوجهن أحسن الاصهار ويجنبهن المزالق والمهالك التي تحفل بها الحياة ، انه فى وظيفته مرتب منظم ليس من ورفة الا لها محفظة ترتد اليها وليس من فلس الا له باب يحتسب عليه ، بينا الحياة شتيت مسن الفوضى والهرج وهذيان محموم ينعق فيها المجانين والحمقى وطالبو الجاه .

وعلى حين غرة أنس في نفسه شيئا من القوة والعزم فقام الى ملايسه وارتداها جميعا وصف شعرات رأسه وخرج الى الطريق . كانت البرودة شديدة والرياح توشوش ، قد ا طرح الليل اخيلتسه والسماء في تمام صحوها والقوانين تبعث أضواء شاحبة كأنها القناديل فوق الاضرحه . وقليل من المارة يتوجهون نحو المقاهي لاهياء سهراتهم بينما ثغاء الابقار يتردد من المزارع القريبة ، فأحس بالابتعاد وكأنه غطس في حوض مثلوج من غير ثياب وليس ثمة دم حار تخلف في عروقه . فعاد القهقري وهو يعتمد على الجدران ويلتقط أنفاسه ويلهث ، واذا بلغ فراشه اندس فيه بكامل ثيابه واستغرق في النوم هي الغيبوبة عينها .

وفي الصباح افتقد الموظفون السيد حقي اذ لم يحضر مكتبه فاغتاز المراجعون وليس من يدري ان الموظف الكسول المهمل قد غدا جثة باردة مسجاة في السرير . فشاع الخبر واقبل الموظفون وبعض ابناء الناحية فحملوا الجثمان الصغير البارد ووضعوه في سيارة مكشوفة انطلقت به الى بغداد التي اشتهى أن يكون فيها حيا لا ميتا .

## حلم رجل أعمى

كانت سياسة الميتم الجديدة هي التخلص من بعض العميان اللانذنين بأحدى غرفه الواسعة الرطبة الواقعة في الطابق الارضي . كان اولئك العميان ينامون على اسرة خشبية صغيرة مفروشة بأغطية ذات ألوان مختلفة هي قطع مخيطة الى بعضها من نماذج الاقمشة التي يهبها الى الميتم كل عام رجل من التجار .

كان وسط الغرفة خاليا ، خلا ثلاث حمالات يستعملها العميان لرفع الكتب المثقوبة بالمخارز . كان بعضهم يقعد الى هذه الحمالات وينشر فوقها أصابعه ليستقرأ بها الثقوب مستغرقا في قراءة سريعة مبهمه .

أما سياسة الميتم الجديدة فقد تبدت للرئيس اشبه بعملية بتر الاجزاء الفاسدة من الجسد الحي . وقد كان بارعا في شن الحملات الكوماندية الخاطفة على اولئك العزل الفاقدين لنعمة النور، يفاجئهم في ساعات الليل والنهار متمحكا بشتى الاعذار لصب ملامته فوق رؤوسهم زاعما أن الصدقات قد شحت وضاق المكان ولم يعد الميتم ملجأ للعجزة والمقطوعين . وطالما انزل بهم عقوبات التأديب وحجز الطعام والضرب بطرف السير الغليظ ، وما فتى يتهدد ويتوعد بعينين محمرتين حائقتين توقع الرعب في نفس المبصرين حتى قذف ذات يوم بأحدهم الى الطريق وهو فرنسيس .

كان فرنسيس مجهول الاصل لايعرف لنفسه اما ولا ابا . قد اطفأ الرمد عينيه منذ كان طفلا والى نفسه مشردا في الازقة يتصدق عليه اولو المروءة والرحمة حتى تكفله الميتم منذ عدة سنوات وعاش في أكثافه فذاق طعم الاستقرار ، واذ ما احتواه الشارع احترق في الحال مهنة التسول متخذاً مقره في باب الميتم حيث تقع الكنيسة الكبيرة التي يؤمها المؤمنون في الصباح والمساء وتلقى من منبرها الشاهق أعظم المواعظ التي تدعو الى الاخذ بأسباب الرحمة واغاثة الملهوف واكساء العاري واطعام السغبان ، ويردد في جوانبها اسم المسيح آلاف المرات في اليوم الواحد .

كان فرنسيس يظهر في أيام الاحد بشوب أنيق وحذاء مجسלו وسترة نظيفة وشعر مرجل فيتلو ادعيته في خشوع يستدر به

الصدقات ، ماذا يده المتعظمة النحيلة بصحن معدني مكافحا أكداًس  
لظلام المحيطة به بارتعاشات موصولة من اجفائه . والسبب ما كان يترك  
فيه مفتوحاً فيعمل هذا الفم المفتوح على اكساء الوجه كله بموميائية  
متخشبة لم يمسسها البلى بعد .

كان التسول مهنة خطيرة محدورة ، فثمة حملات بارعة يقوم بها  
رجال من البلدية يختطفون المتسول من زاوية الشارع ويقذفونه في  
دار العجزة فيحرمونه لذة التجسول واستراوح نسيم الحرية في  
الطرق . كان فرنسيس يخشى هذه الحملات ويرتعد منها ، فقد  
بلغه ان الناس هناك يسامون الذل والهوان ويضطجعون على مساطب  
من خشب بحشايها وسخة صلبة وينهشهم جيش جرار من الذباب  
والبعوض ولا يعنى بالمريض وان بلغ شفا الموت .

كانت يومها قد راجت بدعة طريفة مستحبة ، هي احتراف  
الشبان العميان مهنة العزف على آلة موسيقية في المرقص ، وكانت  
في الحق بدعة خلاصة تفتقت عن اذهان نيرة تحسن وسائل الكفاح  
لشق الطريق في خضم الحياة الصاخب ، وتشرع ابواب العمل لجمهرة  
العميان الذين اعدوا الملجأ والنصير .

كان يقال ان الراقصات يشفقن على العازف الاعمي ويداعبنه  
حانيات ملاطفات ، وأن بعضهن قد يمنحن قبلاً ولا يضيرهن اللمس  
والاحتضان ، وكلما برع العازف في عزفه وانسجم مع الرقصة المشحونة  
بشئى الاثارات كان ذلك ادعى الى المحبة واشد استنداراً لعطف  
الراقصة .

هذه الانباء المهيجة اسالت لعاب فرنسيس الرجل الحامل لاسم  
أحد القديسين المقربين من الكنيسة ، فحلقت به الى أجواء وردية حائلة  
هي أجواء المرأة المتعطرة الشحيمة ، قد عرّت بطنها وهزت ثدييها  
وجرت وراهما ردفين رشيقين راعشين ليس في الدنيا شئ في مثل  
جمالهما .

كان فرنسيس يذوب شوقاً لهذا المجد العظيم ، ولا يكاد هذا  
الحلم يبارح خياله ساعة من ساعات الليل والنهار ، الا أنه سبق  
ان خاب مرتين في حياته ، حين اعتزم أن يتعلم القراءة والكتابة على  
طريقة بريل ليصيب حرفة قد تكسبه قوت يومه ولكنه لم يتعلم .

كان ذهنه عصيا على فهمها، وحاول كرة أخرى أن يتعلم الفرنسية وهي لغة الرهبان المفضلة، فكان يلتقط الكلمات الطائرة ويحشوها في مخه ولكنها سرعان ما تختلط مع غيرها فتتشوش جميعا وتنكسر في مقاطع ليست هي من اللغة الفرنسية في شيء .

أما اليوم فقد عزم عزما لا نكوص من بعده ان يثقب حظه العائر بحرفة خالدة نادرة احترفها من قبل عظماء الرجال فاقبلت الجماهير لسماعهم وجابوا أطراف الارض واصابوا الثراء ، الا وهي الموسيقى . وطوال شحادة مضيئة استمرت ستة اشهر في باب الكنيسة وفي زوايا الازقة وفي الحانات والمشارب وترديد مالا حصر له من عبارات المسكنة والتوسل وبسط الكف واحتمال الدفع والانتهاز والزجر وتقبل شتائم السكارى ، اجتمع في كنيسه اربعة دنائير هي السعر المناسب لابتياح كمان جيد عامر الاوتار والخشب، وقد ابتاع فرنسيس الكمان المطلوب من أحد الباعة زعم له انه من مخلفات موسيقي شهير استعمله في مفتتح حياته الموسيقية وأوصله الى أرفع درجات المجد وخلد اسمه في سجل العباقره، ولكنه لم يشأ ذكر اسمه . كان الكمان عتيقا مهيب الشكل زيتوني اللون ذا رنين ثاقب كالصغير ، محفوظ في صندوق متهرئ سء الاحكام . كان فرنسيس يتأبطه بشدة حاجبا عينيه المغمضتين بنظارات سوداء كما يفعل سواء من العميان المتأقين وشرع يختلف الى أحد المعلمين ليلقنه بأجر زهيد شيئا من الفن .

كان يتسول سحابة النهار كاشفا عاهته بغير تستر ولا استحياء استدرارا لشفقة المحسنين ، وفي المساء يضع عويناته الداكنة متأبطا كمانه العتيق المخلخل الصندوق ماضيا الى محطة الباص . مضى نحو شهر قبل ان يتيسر لفرنسيس حفظ السلم الموسيقي وحده وضبط مواقع اصابعه فوق الاوتار ، واذا ما انتهى الشهران أحس ان أصابعه غدت أكثر رشاقة واخف مرونة وصار بوسعه أن يخرج بها السلم الموسيقي من غير خطأ ولا بطء ، الا أن مفازة شاسعة لاتزال تنهبط امامه لعزف قطعة موسيقية معقدة مثل رقص الهوائم أو غيرها تمكنه ان يحتل كرسيها في جوقة المرقص فيثير بها الاعجاب ويرضي الراقصة الحسناء التي سوف تتغنخ وتنفلت على نغمات كمانه ، ونقول حسناء لان خياله يأبى الا أن يصور له الراقصة جنية لعبوا مذهلة

ليس المطاط في مثل جسدها تميعا وطراوة .  
كانت هذه الآلة الثمينة التي يملكها تعرقل خطاه وتملاً نفسه  
بالقلق والتوجس مخافة أن تنزلق من صندوقها وتتهشم على الأرض ،  
أو يطعن بمقدمها صدر انسان أو كتفه فيورثه بعض الالم أو يرتطم  
معه بجدار صلب فتقع كارثة لا قبل له باحتمالها .

وذات يوم وقع ما كان يحذره ويخافه . كان يقف في محطة السيارات  
لركوب الباص بالمجان كما هو الحال مع العميان ، وقد تأبط كمانه  
بيد واحدة واستعان بالآخرى على تثبيت غطاها ، بينا أصابعه  
العشرة توقع في الهواء ألحانا لا صوت لها يواكبها فرنسيس بصفيه  
الخافت المهموس . كانت المحطة غاصة بالناس شأنها في الامسيات  
وكان مطر خفيف يساقط في قطرات ناعمة ، وكلما أقبلت سيارة  
تطارح الناس على بابها وتطارح فرنسيس بكمانه وعمى عينيه ، ثم سرعان  
ما يخيب ويعود الى مكانه وهو برم ساخط معتزم ان يناضل نضالا  
أشد ان اقبلت سيارة اخرى ، وهكذا طان مكونه في المحطة نحو  
عشرين دقيقة من غير أن يصيب مقعدا في سيارة وخشى أن يمضي  
المساء وهو في مكانه من غير درس .

واستمر المطر يتساقط مبللا الأرض على نحو خفيف الا أنه  
يكفي لجرف قدم غير محترسة الخطو وكانت تلك قدم فرنسيس .  
ان أنسانا ، نظم كمانه حتى جعله ينزلق من الصندوق ويطيح في  
الفضاء فألقى فرنسيس بنفسه وراءه في الآونة التي كانت تستقبل  
المحطة سيارة مقبلة فكان فرنسيس في الفسحة المكشوفة التي تقف  
عندها عجلتا السيارة الاماميتان . ان احدى هاتين العجلتين سحقحت  
كمانه حتى تفتت الخشب بصيرير زاعق وتقطعت الاوتار شاكية متوجعة  
ثم أنت العجلة بكامل ثقلها وضخامتها على كف فرنسيس الياس  
المتعظم فسحقته هو أيضا عاجنة اللحم والعظم بالدم المسفوح .  
وعلى ذلك فان فرنسيس لم يعد عازفا على الكمان في جوقة المرقص ولم  
تمنحه الرقصات أية قبلة ولم تمسه يد ناعمة ولم يصفق له أحد ،  
بل انه اليوم مجرد متسول بائس مقطوع اليد يخشى رجال البلدية  
أن يخطفوه من الازقة ويحملوه الى دار العجزة .



**OLMA**  
*Automatic*

أولما



فاجي جواد

الوكيل العام - القاهرة -



قريباً • قريباً • قريباً

مطعم

نزدك

الاول من نوعه في بغداد

تخدم نفسك بنفسك

طابق فاضل من الطعم للخدمة الاعيانية

عشرات الأصناف من الأكلات والشربات

الشريعة والفريجة

جربوه مسرة .....

بغداد - شارع السعدون مدخل شارع سينما سحر امين